# جوعٌ إلى المطر...

## قصصٌ وقصائد

جورج يونان

# جوعٌ إلى المطر...
# قصصٌ وقصائد

* الكتاب: **جوعٌ إلى المطر...**
**قصصٌ وقصائد**
* المؤلف: **جورج يونان**
* اخراج فني وتصميم: **سومر كوكبي**
* الطبعة الأولى: 2017

© جميع الحقوق محفوظة

التوزيع: الفرات للنشر والتوزيع
ص. ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 961 1 750054
فاكس: 961 1 750053
التوزيع عبر الإنترنت: WWW.alfurat.com

# المحتويات


الإهداء ..... 7
الدكتور جورج يونان : ..... 9
تجربة جوع إلى الحياة ..... 11

**قصص**

**15**

آكوب ورجل الصحراء ..... 17
الحبيبة ..... 25
السماء ليست زرقاء ..... 35
الصخرة ..... 41
قصة بعنوان "المجرم" ..... 45
بعد ليل أشهب ..... 53
جوع إلى المطر ..... 63
حيث لا تغيب الشمس ..... 71
شمس جديدة ..... 79
شقيقتي خدّوج ..... 91
..... 97

**قصائد**

**97**

أَلجَرادْ ........................................ 99
اليومُ الأَوَّلْ ........................................ 103
خريف... ........................................ 105
مزمور لفلسطين ........................................ 107
مهاجرٌ من حكَّاري: ........................................ 109
عرسٌ في قانا ........................................ 115
فلتغتسل العواصم الحزينة بلونك ........................................ 119

# الإهداء

إلى الخابور
حيثُ كانت للسماءِ زرقتها
وحيث كانت الشمسُ ساطعةً
وشذى الأرضِ فوّاحاً
وحيث كانت أسرابُ السنونو والدوري تعودُ فوق أشجارنا،
كل ربيع

# الدكتور جورج يونان

قد لا يكون الدّكتور جورج يونان معروفاً في عالم الأدب، وقد لا يكون الفعل الأدبيّ فعلاً ملازماً لحياته، إلا أنّ هذا لم يمنع من كونه كاتباً أصيلا يحمل قلماً مميّزاً بتماسكه وتأثيره وقيمه؛ مع أنّ مهنته الأساسيّة هي الطبّ. إذ تخرج من المعهد الطبي الفرنسي عام 1970، وتخصص في الأمراض الداخليّة، ثم في أمراض القلب والشرايين منذ سبعينيات القرن العشرين، وذلك في الولايات المتّحدة الأمريكية. وزاول مهنة الطب بوصفه طبيباً للقلب والشرايين في ولاية نيوجيرسي منذ العام 1978، وعرف من خلال هذا الموقع وتدرّج فيه، ليصل إلى رئاسة منظمة الأطباء العرب الأمريكيّين، وإلى نيل ميدالية "إليس-أيلاند" لنشاطه الاجتماعيّ.

رسالته الإنسانية لم تقتصر على هذا الجانب، فقد اندفع في العمل السياسيّ والنّضال القوميّ من خلال انتمائه عام 1961 إلى الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، وهو ابن منطقة الخابور في الحسكة، بما يعنيه ذلك من نسيج اجتماعيّ فريد وموقع جغرافيٍّ حسّاس. وهذا ما يجعل من الانتماء العقديّ تحدّياً وتضحيةً أوديا به إلى إعتقالٍ أوّل في ثكنة القامشلي العسكريّة، ثم على الحدود اللبنانية- الشاميّة عام 1962 بعد المحاولة الإنقلابيّة في لبنان.

الدّكتور جورج يونان ناشطٌ على الصّعيد الصحافيّ، لا سيما من ترؤسه لمجلّة "الحكيم" الصادر عن منظمة الأطبّاء العرب الأمِريكيين، كما من خلال نشره لمجموعة من الدّراسات السياسيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة في الصحافة المكتوبة، منها "الصّراع القوميّ في محادثاتي مع ستالين" و "الأسس العلمية لنشوء المجتمعات الإنسانيّة".

وهو إلى ذلك، أديبٌ وقاصّ أصيل نشرت له الصحف مجموعةً من النصوص الأدبيّة المتنوعة والتي تنبع من عمق إنتمائه ووعيه لقضيّة أمّته. وهو ما يعمد إلى تقديمه لنا في طيّات هذا الكتاب.

# تجربة جوع إلى الحياة

إختراق الزمن، كما هو معلوم، طبيعة ملازمة لأي عمل أدبي يستحق هذه الصفة؛ إنطلاقاً من كونه فعلاً يخاطب المجتمع والأجيال، وبالتالي يواكب الأحداث والأزمات، كما يصدر عن القيم والمطامح العليا. وبناءً على هذا الخطاب يتحدد مستوى من المستويات التي تجعل منه مخترقاً للزمن، إلى جانب إختراقه لقلوب المتلقين وعقولهم، كما للحواجز الاجتماعية والسياسية والبيئية... وهو ما يعني أنه يتحول إلى منارة للجماعة عوضاً عن كونه مرآة لها.

وأن يكون الخطاب الأدبي مرتبطاً بالجوع هذا يعني إمتلاك الخطوة الأولى على طريق إختراق الزمن، تبعاً لكونه لصيق الصلة بالحياة من جوانبها كافة... وهو الجوع بأبعاده الإيحائيّة القصيّة، وإن حملت في طياتها الدلالة الأولية المادية للكلمة. إنه الجوع إلى الحرية، وإلى النضال.. إلى العدالة، وإلى المطر.. إلى الإتحاد بالأرض، وبالآخر.. وإلى الإنتماء والتضحية.. إنه باختصار توقٌ إلى الحياة وإلى النظرة الجديدة نحوها.

هذا حال المجموعة القصصية التي بين أيدينا، والتي شكلت خطاباً أدبيّاً شبه متكاملٍ يستقيم في عشر قصص تناولت جوانب

مختلفة من الحياة، متخذة من الأسلوب السّرديّ الخطيّ الذي يغلب عليه الطابع التقليدي منهجاً لها، وذلك في إطار تماسك متنظم ضمن عنصري التّكثيف والتشويق اللازمين في أي عمل قصصي. وهي قصص تتمحور حول قيم اجتماعيّة وقوميّةٍ لا يجد القارئ كبير عناءٍ للوصول إليها، تجيدها شخصيَات سوريّة البيئة ذات طابع إنسانيٍّ عام لا يخفي إختزانها لمسار وجداني مؤثر يشكل قدوة للأجيال.

تجدر الإشارة إلى أن فاعلية هذه القصص لا تتأثر بكونها كتبت في مرحلة زمنية بعيدة عنا في معظمها، لأن عملية الإختراق الزمني جعلت منها عملاً أدبياً رؤيوياً قادراً على إنارة للمجتمع.

فالأخوة بين "أكوب ومجمّد"، ألسنا في أمسّ الحاجة إليها في حالنا الحاضرة؟ وشخصية الأم التي اختارت طريق الكفاح في وجه الانتداب، أليست أنموذجاً يُحتذى في ظلّ التّكالب الخارجيّ على بلادنا؟ كما أن والدَي الطّفل "سمير"، ألا يمكن عدهما تمثيلاً لواقع شريحةٍ عريضةٍ من القوميين الاجتماعيين المناضلين في سبيل الأمّة وحرّيتها وتقدمها؟ وقد يصح ذلك أيضاً في شخصيّة "عادل"، أفلا يمكن أن نرى فيها أنموذجاً مرافقاً لحياة المجتمعات التي يسود فيها الظّلم الاجتماعيّ والاقتصاديّ؟ ألا نستطيع أن نجد في شخصيّة الفلاّح "غالب" وجهاً رمزّياً من وجوه التفاني في وجه من يعرقل مسيرة الأمّة في إنتاجها وحيويتها؟ وأبطال من أمثال المقدّم "غسّان" ألا تُعدّ قدوةً لكل مخلصٍ في سبيل الأمّة وحياتها؟ وقس على ذلك الشخصيّات الأخرى التي تبقى شبيهاتها الواقعية معاصرة إلى أقصى الحدود، سواء على المستوى الوطنيّ أو الاجتماعيّ أو الثقافيّ... فكم من "أبي مسلطٍ" كان الإثم الكنعانيّ قدراً له بقدر ما هو خيار؟! وكم من "رائدٍ" أجبرته هويّته

الأوّليّة على الانخداع بمظاهر كاذبة والاصطدام بها؟! وكم من "وهيبٍ" عرف طريقه إلى النّدم بعدما وقع بتبعات تشوّه نظرته الاجتماعيّة الذّكوريّة؟! وكم من فتاة كانت ضحية الواقع الذكوري المهيمن ونظرته المختلفة إلى المرأة؟!

إذا فالمنحنى الرّؤيويّ لهذا العمل، المكتوب في مرحلةٍ متقدمةٍ جدّاً على أيّامنا، يظلّ حاضراً ومطلوباً، لا بل يتحوّل إلى حاجة قوميةٍ واجتماعيّةٍ في مثل هذه الحال التي نمرّ بها. ولا تزيد نماذج النّثر الشّعريّ السبع الكتاب إلا تأكيداً على هذه الرؤية وعلى قيم الحقّ والخير والجمال التي يحملها.

واستناداً إلى ذلك، قد يكون من المهم التّصريح بأنّ تجربة الأمين جورج يونان الأدبيّة السّردية تجربة تستحقّ التّقدير والتّأني في قراءتها لأنّها تنبع من وعيٍ قوميٍّ، ومن فكرٍ يصرّ على عدّ الأمّة السوريّة أمّة الحقّ والخير والجمال، لأنّ في نفسها كلّ أدبٍ جميلٍ راقٍ وكلّ فنٍّ سامٍ يهدفان إلى تجديد الحياة وتجديد النّظرة إلى الحياة...

**عمدة الثقافة والفنون الجميلة**

**في الحزب السوري القومي الإجتماعي**

**د. لؤي زيتوني**

# قصص

# آكوب ورجل الصحراء

**بقلم: الدكتور سمير أنطاكي / حلب**

آكوب صديق قديم، رغم أنه يكبرني بسنين، ربما هو بعمر والدي أو أكبر، ولكن هذا لا يهم، فبعد الأربعين تتقارب الأعمار.

يزورني آكوب مرة كل سنة من أجل فحصه السنوي لعينيه، ويأتيني مراراً مرافقاً العديد من الاقارب والاولاد والأحفاد. فكل من قال "آخ عيني" أتى به إليّ، وهو فخور جداً بطبيبه ومعتزّ بصداقته لي. والحمد لله كانت أكثر زياراته مكلّلة بالنجاح والشفاء.

توطّدت العلاقة بيني وبين آكوب فأصبح الانسان الذي يهتم بأجهزتي عندما تتعطل، وبسيارتي عندما تعربد، وبكل مشاكل الكهرباء والميكانيك في العيادة والمنزل.

فهو يفقه بكل هذه الأمور، وبذلك كنا نسعف بعضنا، كلّ ضمن اختصاصه.

لم تكن لصديقي آكوب ثقافة عالية، فلم تتح له الفرصة للدراسة، لكنه كان شديد الذكاء، لا يجيد القراءة والكتابة، ولكن يفهم في أمور عدة، ومن قال أنه عليك أن تكون جامعياً كي تكون

فهيماً ومنطقياً؟ فلقد وصل آكوب الى حلب مع قوافل المبعدين إبان هجرة الأرمن يوم المذابح الهمجية في العام 1915. وكان يبلغ الثالثة من العمر وكان ووالدته وأخته البالغة الخامسة من العمر من الذين نجوا واستطاعوا الوصول الى حلب بعد رحلة عذاب دامت اكثر من أسبوعين سيراً على الأقدام، بينما وقع على الدرب كل من والده واخيه الاكبر واعمامه الثلاثة.

عندما وصل آكوب الى حلب عاش كما عاش العديد من المهاجرين في مخيمات أعدّت لاستقبالهم أو في اكواخ خشبية يغطيها سقف من التوتياء بُنيت على عجل، وبدأت أمه تعمل كمربية للأطفال في أحد البيوت الحلبية، فاستطاعت بفضل شجاعتها وعملها الدؤوب الاهتمام بأولادها وتربيتهم تربية حسنة. وما أن بلغ آكوب العاشرة حتى أرسلته الى احدى ورشات الحدادة والميكانيك، فعمل هناك لسنين ليلاً نهاراً، واكتسب خبرة كبيرة وابدى مهارات عالية، جعلته يتقدم في عمله إلى أن غدا رئيساً للورشة.

وفي يوم من الايام جمعت أم آكوب كل ما لديها من نقود وضمّتها إلى نقود آكوب واشترت له بهذا المبلغ دكاناً صغيراً في حي الميدان، واقتنى بعض الأدوات المستعملة بسعر زهيد فجدّدها وبدأ يعمل لحسابه. وها هو اليوم صاحب عدة ورشات في حلب، ويملك داراً فخمة ومزرعة وعنده سيارات عدة. وقد حصل أولاده على تربية عالية، إذ ذهبوا الى المدارس الخاصة والجامعات المرموقة. فمنهم الطبيب ومنهم الموسيقار ومنهم المهندس ومنهم من عمل مع والده فحسّن طرق العمل وأدخل الاجهزة الحديثة عليها. وصديقنا آكوب فخور بكل ذلك.

ذات يوم زارني آكوب في العيادة، وعلى عادته انتظر مع باقي

المرضى، فكان يعتقد بأن على الصديق أن يحترم طبيبه وألا يحرجه، فهو أجدر من غيره بتفهم وضع العيادة ومعاناة المرضى وحرصهم على ألاّ يأخذ أحد دورهم، اللهم إلا إذا كانت هناك حالة إسعاف، وهذا شيء بديهي يزيدني تعلّقاً واحتراماً لصديقي آكوب.

وعندما أتى دور آكوب دخل غرفة المعاينة ومعه رجل مسنّ من البادية بلباسه التقليدي مع العقال والجلباب والعباءة. ذقنه موشومة وكذلك يداه، وبعد المصافحة والسلام قال آكوب: "انني أقدم لك اخي الحاج محمد الرميلان". فرحّبت به وسألت: " هل الحاج محمد وكيلك على الأرض التي تملك من سنوات في الجزيرة وهو يهتم بالزرع والحصاد؟".

قال: "لا إنه فعلاً أخي".

فظننت أنه يعده كأخ وأن بينهم مودة كبيرة. فقلت: "حسناً يا حاج، اجلس لو سمحت كي أبدأ المعاينة".

وما أن باشرت حتى لاحظت أن العينين في وجه هذا البدوي هما عينا آكوب نفسه. فالتفتّ إلى آكوب وقلت: "اقترب لو سمحت وقف بجانب الحاج محمد" ففعل. وأخذت أنقل نظري بسرعة لكي أقارن بين عينيهما، وإذ هي بالفعل متشابهة، كذلك ملامح الوجه وتقاطيعه والأنف مع التحدب عند قاعدته. فقلت: "أأنت جاد بما تقول هل هو أخوك يا آكوب".

فقال: وماذا تظنني كنت أقوله لك منذ دخلت الغرفة، إنه بالفعل أخي.

فقلت: "ولكن كيف أمكن أن يكون هذا؟ ولم أعلم قط أن لك أخاً. وتابعت، وهل يتكلم الارمنية؟".

فأجاب الحاج محمد بلهجته البدوية الصرف: "لا يا خويا وكيف اتشلم أرمني وعشت بعيد عنهم وعن امي".

وهنا كان لا بد لي من أن أفهم هذه القصة. فجلست وأتيت بكراسٍ للجميع، وطلبت من آكوب أن يحدثني ويشرح لي صلة القرابة وكيف ومتى ولماذا.؟

فقال آكوب: عندما بلغت الأربعين وكانت والدتي هرمت، وبعد أن أصابها مرض لم يفد فيه لا الطب ولا الدواء وكانت تحتضر، جلست وإياي يوماً وقالت: يا آكوب علي أن أكلمك في أمر خطير جرى منذ سبعة وثلاثين عاماً، يوم هاجرنا هرباً من وحشية العثمانيين وبطشهم، واقتادنا الجنود سيراً على الأقدام إلى سورية. فمشينا ومشينا ليل نهار نأكل من أعشاب الصحراء ونقتلع جذور النباتات نلتهمها بمرارة، وفي أحد الايام انتزع أحد الجنود والدك مني وقطع رأسه بضربة رشيقة من سيفه الحاد، ورموا عمك من أعلى الجبل، وانت كنت في الثالثة تصرخ ليل نهار مذعوراً كلما اقترب منك أحد هؤلاء الاشرار ليكلّمني ان وقعت أرضاً من الإعياء وينهرني بفظاظة لكي أنهض واتابع المسير، ووانيس رضيعي بين يدي.

وفي يوم من الايام كانت قواي قد فارقتني والحليب الذي في صدري جفّ، ووانيس كان محموماً جائعاً لا يقوى على البكاء، أحسست بأنه سيموت. فاقترب مني أحدهم وقدّم لي الماء وقال: اشربي يا امرأة أنت منهوكة القوى، ثم أعطاك جرعة من الماء وأعطى اختك ازنيف، وبعدها أخرج من جعبته رغيفاً وقدّمه لنا قائلاً: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكيف يقدمون على ذلك. ثم سألني: "أين رجلك". قلت: "قطعوا رأسه". فقال: "يا للعار". وتابع: "تعالي يا امرأة أنت وأولادك سوف نستضيفك عندنا فتعتني

بك فاطمة زوجتي الى أن تستعيدي قواك". وإذا بالجندي الذي راقب هذا الحديث يقترب ويصيح صوتاً في الرجال، ويشهر البارودة في وجوههم، ويطلب منهم الرحيل. وحاولوا اقناعه، ولكن دون جدوى، فنظرت الى طفلي وانيس، وقلت لهم، وكان الجندي قد ادار ظهره: "أنقذوه على الأقل، فإن بقي معي سوف يموت". وكان عمره أربعة شهور، فقال الرجل: "اتركيه أرضاً وتابعي السير، فلن يشعر بذلك الجنود، وما أن تبتعدي سوف نأخذه. ونعدك بأننا سوف نهتم به كأحد أطفالنا". وقال - وكنا قد عاودنا المسير وهو يلتقط الرضيع "انا من عشيرة الرميلان تذكري ذلك يا امرأة".

وتابع آكوب حديثه والدموع تنهمر على وجنتيه، كما على خديّ الحاج محمد قائلاً: يومها قالت لي والدتي. يا آكوب عليك ان تذهب الى الصحراء وأن تسأل عن عشيرة الرميلان في منطقة قريبة من المكان الذي اغتيل فيه والدك، وهو يبعد يومين سيراً عن تل أبيض. فإن كان أخوك ما زال حياً، فهو موجود عند عشيرة رميلان. ولكي تتعرف عليه، هناك على ظهره جرح عميق يمتد من أعلى كتفه الأيمن الى خاصرته اليسرى، نتيجة إصابته برأس السيف عندما حاولت الوقوف وهو بين ذراعيّ أمام الجندي الذي كان يهم بقتل أبيك.

وقال آكوب: وهذا ما فعلت، فذهبت في اليوم نفسه وفتشت وسألت حتى وصلت إلى الحاج محمد، وتعجّبت للشبه البالغ بيننا كما تعجّب أولاده العشرة وزوجتاه الاثنتان.

وتدخّل في الحديث الحاج محمد قائلاً: عندما بلغت العشرين من عمري، سألت يوماً أبي الشيخ مشعل عن العلامة التي في ظهري فقلت: هل كنت طفلاً شقياً وأنا أركض؟ قال - لا -

لقد ولدت كذلك. فقلت وكيف يمكن ذلك؟ قال: "انك ولدت يا محمد يوم انتشلناك من الموت وفعل ما فعل بك وبقومك الأشقياء"، وقصّ عليّ ما جرى متابعاً "لكن لا ندري ما حصل لهذه المرأة المسكينة، ربما ماتت ولم تصل الى أي من المدن الكبرى التي اقتيد المهجرّون إليها". يا لها من كارثة. يا لهول المصاب. وكيف يمكن لانسان متحضر أن يفعل ذلك بأخيه الانسان؟ وقال: أنت اليوم يا محمد ابننا ويجب أن تتزوج بحسب سنة الله وتعاليم الرسول"، ففعلت ذلك وزرت بيت الله الحرام، والحمد لله، وكنت كلما أصلّي أرفع دعائي لله وأترحم على هذه المرأة الجبارة وعلى أخوتي إن كانوا في ديار الحق، وأطلب من الله أن يمد بأعمارهم إن كانوا على قيد الحياة.

قال اكوب: يا للشهامة العربية، إنك تعلم يا دكتور بأن هناك العديد من الأطفال، ذكوراً وإناثاً تركهم أهلهم لانقاذهم من الموت عند القبائل العربية السورية على طول سير قافلة الجحيم التي توجهت إلى سورية وبشكل خاص الى حلب، ولقد تعرفت إلى العديد من الرجال والسيدات الذين هم في وضع اخي محمد. ثم قال: ولو لم نلق في سورية ما لقيناه من محبة وترحيب لما استطعنا أن ننهض من الحضيض وأن نصل إلى ما وصلنا إليه اليوم من وضع يحسد عليه، فقلت: بالفعل لقد نبغ العديد من الأرمن في سورية من رسّامين ونحّاتين وكتّاب وموسيقيين وأطباء ومحامين ومهندسين وصناعيين وتجار وعمال وفنيين. ساهموا في نهضة سورية على أكمل وجه وسورية فخورة بهم. فقال محمد وآكوب معاً: "ونحن فخورون بأننا أصبحنا سوريين".

وبينما نحن مندمجون بالحديث دخلت الممرضة لتستفسر عن سبب التأخير في هذه المعاينة قائلة: دكتور ألم تنته من معاينة السيد

محمد؟ مضى عليه في الغرفة أكثر من ساعة ولقد ضجر الناس في قاعة الانتظار وهناك أكثر من خمسة عشر مريضاً ينتظرون.

فقلت لها: لم أبدأ بعد الفحص إنما كنت في صدد استجوابه عن الامراض السابقة والقصة العائلية والشكوى الأساسية.

قالت: وما هو الذي يشكو منه؟

قلت: إنه يشكو من وحشية الانسان لأخيه الانسان. إنه يشكو من فقدان المحبة في قلوب الانسان، فتسمح لنفسها بأن تبيد شعوباً بأكملها. إنه يشكو من جفاف عينيه من كثرة ما ذرفه من دموع على والدة مشت أياماً وليالي هرباً من وحشية البشر. إنه يشكو من السيف الذي فصل رأس والده عن جسمه لأنه كان أرمنياً وترك في ظهره اخدوداً الى الأبد. فقلت: أليس كذلك يا حاج محمد؟ وكان يذرف ما بقي له من دموع. فأخرجت المحرمة من جيبي ومسحت وجهي وعيني وقلت للمرضة: اعطيني بضع دقائق لأنهي المعاينة، فلن يكون ذلك طويلاً، واعتذري من المرضى في قاعة الانتظار لهذا التأخير وقولي لهم: إن هناك شعباً بكامله ما زال ينتظر اعتذاراً منذ ثمانين عاماً.

وتابع الحاج محمد قائلاً: وهكذا عثرنا على بعضنا البعض بعد هذه السنين الطويلة.

وقال آكوب: ولكن مع الأسف عندما عدت الى حلب مع محمد كانت والدتي قد توفيت. فذهبنا فوراً إلى مقبرة الأرمن - حيث ترقد بأمان على أرض سورية الطيبة - وصلّيت أنا بالأرمنية وبأعلى صوتي علّه يصل الصحراء مكان قتل والدي. بينما كان محمد يقرأ الفاتحة على روحها الطاهرة ونحن الاثنان نجهش بالبكاء، وصلواتنا تتعالى معاً كسمفونية أرمنية عربية مسيحية إسلامية نحو السماء.

# الحبيبة

كانت الساعة قد جاوزت التاسعة مساء حين ألقى الدكتور "فارس" بجسمه فوق السرير، وتمدّد عليه، دون أن يخلع معطفه الأبيض. كان ينتظر شيئاً ما. كانون الأول يتضوّر من الخارج، ويعوي: برياح تتسلل برودتها الى غرفته الدافئة. وكان رذاذ خفيف ينقر على مصاريع النوافذ الخارجية، فيبعث صوتاً هو أشبه شيء بخليط من أصوات حوافر خيل قادمة من بعيد. أما الغيوم فقد كانت سوداء تبعث حين اصطدامها ببعضها البعض قرقعة، تشبه قرقعة طبول الحرب عند القبائل البدائية.

وظهر الدكتور فارس ساهماً لمدة وجيزة، أطلق بعدها تنهيدةً طويلة ثم تمتم "أواه يا إلهي.. أما كان له من سبيل آخر؟".

وانساق يفكر في أمر والده الضابط السابق في جيش الانتداب، وتساءل في نفسه فيما إذا كان والده قد اقترف خيانة في ذلك أم لا؟. خصوصاً وأن الأمور كانت تختلط عليه. حينما كان يدرك أن والده فعل ذلك من أجل مستقبل ابنه. وأن موته، الذي حدث بعد أن أصبح فارس طبيباً، كان غامضاً لم يكتشف سرّه

---

نُشِرَتْ في مجلة الدنيا الدمشقية. العدد رقم 608–13 عام 1962.

بعد. وهنا تساءل: " من يدري لعلّه أراد التمرد فأضاعوه". إلا أن الشك يعتريه، ولم تكفِ كل هذه المبررات لتقنعه بصواب الطريق التي سار عليها والده. وصرخ في نفسه "أجل، كان عليه أن يختار غير تلك الطريق".

وحدّث نفسه، كأنه كان يريد التخلص من الحيرة التي وقع فيها، قد يكون الماضي مشرقاً، ولكنه إذا كان مشيناً فهو لن يضرّ في المستقبل، أكثر مما أضر، والتفكير فيه انهيار تلقائي رخيص.

في تلك السنة، سنة 1930 كانت البلاد في غليان، وكان حنين الحرية لاعجاً في قلب كل سوري. كانت الأحوال السياسية قد ساءت، بعد أن شوّه (بونسو) دستور 22 أيار لتلك السنة، بأن أضاف إليه المادة 116 التي جعلت قرارات المجلس النيابي خاضعة لموافقته. وجعل فارس يستعيد شريط الحوادث التي جرت منذ ثورة عام 1925؛ ثم قطع رنين جرس الباب سلسلة أفكاره، فنهض من سريره واتجه نحوه بسرعة. وفي أعماق قلبه يزيد دعاء: "كن في عونهم يا إلهي... أفما من ليلة دون جرحى؟".

ووضع إحدى عينيه على ثقب صغير في الباب ليتأكد من عدم وجود مكيدة في الامر ووقع نظره على وجه سيدة مضطرب خلف الباب، هو وجه فدوى، صاحبة الدار التي يسكنها. وفتح لها فارس بحركة خفيفة. وما أن حوتها الغرفة حتى أعاد الباب إلى وضعه الأول، وبادر بالسؤال مستفسراً:

- ماذا؟ هل هناك جريح جديد.

وأجابت:

- لا والحمد لله. لقد جاء رسول واخبرنا أن الثوّار هم اليوم بألف خير.

وحمد فارس ربه لاستجابته لدعائه، ثم تابعت فدوى كلامها بعد توقف، والاضطراب لا يزال يكسو وجهها؛ وقالت وهي تتلعثم:

– ابنتي يا دكتور مريضة منذ الصباح. لقد فقدت رشدها منذ لحظة ولم تعد تتكلم.

وأجابها فارس بشيء من الثقة مطمئناً إياها:

– لا تخافي يا سيدتي، سيكون الأمر بسيطاً إن شاء الله. ارجعي إليها وسأتبعك حالاً.

وتعثرت مراراً وهي تصعد خببا السلّم المؤدي؟؟ حيث تشغله مع ابنتها. كانت فدوى في العقد الخامس من عمرها، كانت ترتدي دائماً ثوباً أسود حداداً على زوجها الذي استشهد في إحدى معارك الغوطة، والذي كان من قادة ثورة الغوطة. ولم يكن الزوجان قد رزقا من البنين سوى يسرى، تلك الفتاة التي بلغت سن الشباب فيما بعد. وكانت صلة فارس بالسيدة، صلة أخوية وطيدة جعلت هذه الأخيرة واسطة بينه وبين الثوّار لمعالجة جرحاهم ومحو الإثم الذي لحق به لتعاون والده مع الفرنسيين.

وأعدّ فارس حقيبة جلدية صغيرة وضع فيها الأدوات الطبية اللازمة. ثم خرج متجهاً نحو الطابق العلوي، حيث كانت فدوى تنتظره، ودخلا غرفة يسرى واقترب فارس من سريرها. كانت صفراء الوجه، إلا أن حمرة وردية كانت لا تزال تصبغ خديها. وكانت عيناها مغمضتين ، وأنفاسها تتصاعد ببطء شديد. وكانت تبدو جميلة جذابة رغم المرض الذي كان يتمطى في قسمات وجهها الباهت.

وجلس بقرب السرير على كرسي قدمته له السيدة. وبسط كفّه على جبين المريضة، فبدا له وكأن رأسها آتون نار. وأحسّت الفتاة

بلمسة يده، ففتحت عينيها. وما أن وقع نظرها عليه، وهو جالس بجانبها بثوبه الابيض الذي كان يبدو فيه كملاك حنون، حتى شعرت برعشة فرح، وبضربات قلبها تزداد قوة، وجمدت نظرات كل منهما في عيني الآخر. وغمرها في تلك اللحظة شعور حبيب أنساها أنها مريضة، مريضة الى درجة أنها فقدت وعيها.

ولم يكن شعور فارس بأقل من شعورها، خصوصاً وأن حالة غير طبيعية طالما كانت تدهمه كلما كان منظرها يومض ويختفي سريعاً كهالة من نور سماوي. وارتعشت شفتاه، كارتعاش صفحة الماء تحت دغدغات نسيم خفيف، وهو يسألها:

– بماذا تحسين يا آنسة؟

وظلت صامتة لا تنسل من شفتيها كلمة. ثم شرع يشخّص مرضها، واستمر في ذلك لمدة وجيزة، ثم قال لها:

– مدّي لسانك قليلاً من فضلك، وشعرت بالخجل؛ ولكن سرعان ما حدّثتها نفسها أن تكون طبيعية، فكل ما في الأمر أنها مريضة، ويجب أن تتعاون مع الطبيب لفهم أسباب المرض.

– ومدّت لسانها، واعتراها الخجل، أكثر فأكثر، حين أطرق فارس يتأمّله ملياً. ثم هزّ رأسه كمن اكتشف شيئا، وسأل السيدة، التي كانت لا تزال جالسة على حافة سرير ابنتها، تارة تتأملها وتارة تتأمل حركات الطبيب باهتمام:

– هل سبق أن عرّضت نفسها للبرد؟.

وصمتت السيدة، لكأنها ، كانت تبحث عن جواب، ولكن سرعان ما أنقذها من ارتباكها وهو يقول:

– إن الجو بارد في هذه الايام واعتقد أنه أثّر عليها قليلاً. وهزّت السيدة رأسها موافقة على كلامه. واخذ الطبيب يخرج بعض

الأدوية من محفظته، وصفها للمريضة. ثم نهض ليعود الى عيادته، لكن السيدة منعته وأجلسته ثانية على كرسيه:

- - لا يجوز أن تعود هكذا قبل أن أعدّ لك قدحاً من الشاي.

- شكرا يا سيدتي يجب أن أعود لربما...

وقاطعته بإلحاح:

- لا. لن أتركك تنزل قبل أن أعد لك شيئاً ساخناً.

وأمام إلحاحها اضطر فارس إلى الجلوس، وخرجت هي متجهة الى المطبخ، وبقي هو ويسرى وحيدين في الغرفة. كانت تغور في كيان كلّ منهما رغبة في التحدث إلى صاحبه. ومع ذلك، كان شيئاً ما يلجم لسانيهما، وكان صمت شفاف رقيق يرين على شفاههما. وفتحت الفتاة عينيها، والتقت نظراتهما للمرة الثانية، في تلك الليلة. وبدا لفارس أن عليه أن يبدأ الكلام. كانت في قلبه أشياء كثيرة يريد أن يفصح عنها، ولكنه اكتفى بأن سألها:

- كيف تشعرين الآن؟.

- بخير. أشعر بتحسّن منذ لحظة مجيئك.

وأشاحت بوجهها عنه في حركة بطيئة، ثم غمغمت بيأس:

- أما أنا فلا أريد ذلك. أحس برغبة ملحّة بالموت.

وسألها بعينين جاحظتين تلوح فيهما الدهشة:

- لا سمح الله، ما الذي يدعوك لذلك؟ لا زلت شابة في مقتبل العمر، وعليك أن تنظري إلى الحياة بغير هذا المنظار.

وشهقت شهقة طويلة نمّتْ عما كان يجيش في قلبها من ولعٍ فيه ثم قالت:

– أنا لا أدري هل أنتَ تتجاهلني قصداً أم أنكَ غيرُ عالمٍ بالأمر؟

وتساءل كمن لا يعرف شيئاً:

– لم يا عزيزتي؟

– أَتدري؟ سأخبِرُكَ، ولكن لا أريد منك جواباً. لا أريدك أن تتكلم مطلقاً، فأنا أخشى كلامك، أخشاه أن يصفعني بطريقة ما.

ونظر إلى عينيها نظرة حائر، ثم قال:

– قولي ولا تخشَى شيئاً؟ هل من خدمة أستطيع أن أقدمها لك؟.

– أواه يا إلهي، ما الذي سأقوله ؟ أحبّك يا دكتور. ولكنك لا تحبني، حتى لتبدو أحياناً وكأنك لا تعرفني. أو كأن الخمسة أشهر لم تكن كافية لتعرفَ ما يجولُ في خاطري. نعم، إنني شابة في مقتبل العمر، ولكن ما نفع الشباب لنا، إذا لم يكن عَبِقاً بنفحة حب؟ إنه أشبه بصحراءٍ ما مرَّ عليها ربيع. تبقى قاحلة أبداً.

وشعر فارس بموجة فرح، وأحمر وجهه، فقد كان خجولاً للغاية، وحاول أن يقول لها أشياء كثيرة، لكنه لم يستطع، واكتفى بابتسامة تماوجت على شفتيه.

وكانت شيئاً كثيراً بالنسبة ليسرى، جعلتها تتابع كلامها، وفي قلبها تصطخب فرحة هي الأخرى، وتصنع لها الكلمات:

– كنت أتمنى منذ مدة أن أفصح لك عمّا في قلبي، ولكني – كما قلت لك – كنت أخشى أن ألقى منك الصد، وفي هذا اليوم، حين شعرت بالمرض، حاولت والدتي استدعاءك، فرفضت ومنعتها من ذلك، ظننتُ أنك تكرهني، مع أنني طالما اشتهيت أن

أغرق نظراتي في وجهك الصبوح. وكان أن غبت عن وعيي، فاستدعتك دون علمي.

وما كادت تتوقف قليلاً عن الكلام، حتى تناهى إلى مسامعهما، وقع أقدام فدوى، ثم دخلت وهي تحمل بيدها طبقاً عليه قدحاً من الشاي قدمته للطبيب: فتناوله بيد تنساح فيها ذبذبات قلب يصطخب بشدة. ثم أخذ يتحدث مع فدوى عن آخر أنباء الثوار، وبين الحين والحين، يرشف من القدح جرعة شاي. وما أن انتهى حتى تناول محفظته، وعاد إلى عيادته، كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ليلاً، وكان يشعر وهو في طريقه وكأنه يهيم في بحر من السعادة.

إلا أن أحوال الوطن كانت تسوء ، يوماً بعد يوم، فقد أُقيلت حكومة تاج الدين الحسيني، ثم دُعي الشعب لانتخاب برلمان جديد، حاول الفرنسيون مسخه بالتزوير . وغدت بذرة الخير حينها تقلب التراب لتخرج النبتة للنور، تلك التي شربت من رحيق ثورة 1925 وما كان قبلها وبعدها لقد كان الشعب يثور في دمشق وحماه وكل المدن السورية وحدثت اصطدامات عديدة مع سلطات الاحتلال.

وفي تلك الأيام كانت خطبة فارس قد عقدت على يسرى، وأصبحا لا يفترقان لحظة، وكانا يترددان على الضواحي المجاورة لمدينة دمشق بقصد النزهة، ولم يكن ذلك يعني أنهما في حالة عدم اكتراث لما يجري في وطنهما، فقد كانا فردين من شعب هائج، يريد الحرية لبلاده بأي ثمن.

وفي إحدى المرات، زارا المكان الذي كان قد استشهد فيه والد يسرى، ومرة أخرى صحبته إلى قبو بنايتهم، حيث كان الثوار يعقدون اجتماعاتهم، كان القبو مؤلفاً من عدة غرف، تتوسط

إحداها طاولة كبيرة، حولها عدد من الكراسي، وشرعت يسرى تشرح لخطيبها:

- هنا، رُسمت فكرة ثورة الغوطة.

ثم أشارت بيدها إلى بعض الكراسي قائلة:

- انظر، هنا كان يجلس عبد الرحمن الشهبندر، وهنا حسن الخراط، وهنا والدي. ليتك رأيتهم مجتمعين، كانوا كأخوة في أسرة واحدة. كم كانت جميلة تلك الأيام، كانت الحياة مشوقة تعجّ بالأعمال.

ووقعت عينا فارس على بندقية معلّقة بحاملها على أحد الحيطان، فسألها:

- وهذه ما السر في أنها باقية؟ فأجابته:

- إنها البندقية التي كان يحارب بها أبي. كانت معه حين قتل، وقد حملها إلينا أحد الثوّار، ممن كانوا معه، وكم أردت من والدتي أن تهبها إلى أحدهم! ولكنها ترفض، وتبرر رفضها بقولها:

"هناك من يحملها، ولكن الوقت لم يحن بعد"؛ ولقد أردت منها مراراً أن تفصح لي عن اسم ذلك الشخص، لكنها تأبى وتكتفي بالقول: " ستعرفينه يوماً ما".

وجعل فارس يستعيد كلام يسرى في مخيلته، ثم تساءل في نفسه:

"من يدري لعله هو الشخص المعني، زوج يسرى المقبل؟".

أشياء كثيرة استعملها الثوار فيما مضى وبقيت في الغرفة. وكانت يسرى تنظف هذه الأشياء كل صباح وتعتني بها. لذا فإن الغبار لم يكن ليتراكم فوقها وكانت تقول إنها تفعل ذلك احتراماً وتقديراً لأولئك الذين جعلوا الغرفة مركزاً يرسمون فيه خطط تحرير

الوطن من العبودية. أما الغرف الأخرى فكانت خالية من كل شيء، إذ أن الأسلحة التي كانت فيها، أرسلت إلى الثوار.

وتمّ زواجهما في الصيف، وبعد ذلك بأيام أفاقا على حادثة أدهشت فارس، لكنها لم تكن لتثير دهشة كبيرة لدى يسرى.

كانت فدوى قد اختفت في الليل، ولم تترك وراءها أي أثر سوى رسالة تقول فيها:

"عزيزي فارس: لا تبحث عني، إن الوطن كما تعلم بحاجة إلى كل فرد منا. فحياتي لن تكون أغلى من حياة وطني، وأفراد شعبي الذين يقاتلون من أجل كرامتهم، لا بل أن حياتي ملك هذا الوطن الذي يعيش حبّه في دمائنا. كانت فكرة الالتحاق بالثورة تراودني منذ استشهاد زوجي، لكن يسرى كانت عثرة في هذا الطريق، إذ كنت أخشى عليها قسوة الدهر بعد موتي. والآن وقد أصبحت في كنفك، فلا شك أنها ستكون سعيدة معك، أوصيك أخيرا بيسرى وأرجو أن تعتذر لها نيابة عني".

هذا أهم ما كان في الرسالة، وبعد أن أتمّ فارس قراءتها، قالت يسرى بصوت بالغ التأثر:

- لقد توقعت ذلك هذا الصباح، حينما لم أجد لها ولبندقية والدي أي أثر.

وصمت فارس، كان يجيش في قلبه مزيج من شعور بالفخر وبالأسى، وكانت ثمة دمعة تتدحرج فوق خده بتمرد، ثم تمتم: " من أجلك يا بلادي، ألا كم أنت غالية في قلوب أبنائك يا حبيبة!".

# السماء ليست زرقاء

الصمت ليل أشهب، يلفّ كل شيء في المدينة، ولكن نعيقاً وحيداً يظل ينبعث أبداً من الصندوق الخشبي اللعين، الكائن في مقهى قريب. والزيف وحل، تغوص فيه الركب، يعلق بالوجوه، يمسخها. الليل والوحل يترسّبان في الدروب، ويطبقان على الأعين، وكالحشرات يقتحمان شواطئ المرجان، يقيئان العفن.

لقد خبا حفيف المجداف في البحار، إلى الأبد؟. الشواطئ عطشى للأرجوان، وحور البحر ثكالى فأشرعة الأحبّة لم تعد، وما من سندباد يقتحمُ المساحات. والطيورُ ولّت مرتعبة من الشتاء القارس القادم.

تشعر "ثريا" بالجنين يتحرّك في أحشائها، تلسعها وخزة ألم، تصعق. تضع يديها على بطنها البارزة بشكل ظاهر، وترتمي على حصير رثّ، يلتصق بأرض الغرفة الرطبة، تلسعها وخزة أخرى، ويتوالى على بطنها الوخز. تتمتم: "تسعة أشهر يا بني. دمي يمتزج بالعذاب والجوع والحقد. وأنت تتجرّع دمي، تتجرّع العذاب والجوع والحقد. يا لك من لهيبٍ تحملُهُ من أحشاء أمِّكَ إلى

---

نُشِرَتْ في مجلة الدنيا الدمشقية. العدد رقم 626 تاريخ 8 آذار 1963.

شمسٍ مشرقة في سماء بيروت".

يومان يمضيان منذ أن صدر حكم الاعدام على زوجها، بتهمة التمرد. "تمرد"! أجل. ليكن، كان تمرداً على الليل. لم يشأ أن تنغرس رجلاه في الوحل حتى الركبتين. حكم الاعدام على زوجها لم يكن مفاجئاً لها! ربما لأن وحشة الليل، كانت تنذر بحدوث أشياء أفظع من ذلك، وما زال الوحلُ عالقاً بالوجوه الهجينة. والأرجلُ حتى الركب غارقةً فيه، وما زال الغيمُ الأسودُ يعربدُ في السماء.

مرّة حدّثها زوجها: "لسنا أنبياء يا ثريا، كما يفترون علينا. ولكن يحز في قلوبنا أن يعم أرض الأنبياء هذا الظلام الداكن. كم من إسخريوطي هنا يتبرقع بثوب الله. على وجوه الناس أقنعةٌ صنعتها سلالات الأفاعي. إلى أي مدى سيأخذُ الزيفُ هؤلاء الناس! تأملي يا ثريا، لو قلنا لهم أن السماء زرقاء، لقالوا كذبتم: ليست كذلك! حتام هذا الشعب يظلُّ ينحتُ أصنامه؟

موجات الألم تتوالى واخزةً إياها. ترتسم على جبينها تقطبات خشنة. عرق غزير ينضح من مسامها، وطرفها الملاصق للأرض الباردة يتجمد، فينشطرُ جسمها إلى قسمين: حارٌ وبارد. تهتف في نفسها: "يا للمصيبة"! يبدو أن الخريف قادم دون تردد، يتبعه الشتاء، ترى كيف ستمر الأيام عليك، وعلى أخيك المقبل، دون حطب يا سمير.

سمير يكبو بجانبها مذعوراً: ماما.. ماما.. ما بك؟.

سمير لم يتجاوز الخامسة من عمره ولا يدري شيئاً من أمر أمه. تتطلع ثريا في وجهه قلبها ممزق، تقذف على شفتيها إبتسامة كدراء، ثم تجيبه: "لا شيء يا بني.. لا شيء.. لا تقلق.. سيكون لك أخ. ألا يبدو ذلك رائعاً؟".

ويبتسم سمير. ولكن الذعر يظل يقتحمُ نظراته، يقلّصه، يحيله كتلة من لحم ترتعش. تحاول ثريا أن تخفي عنه ألمها. قلبها يتمزق شفقة عليه.. اسمع يا سمير، ألا تريد أن تسمع قصة والدك؟. لقد وعدتك بذلك. ألا تريد؟.

ويحس سمير بموجة من الفخر تكتسحه، يهتف بفرح: "أجل.. أجل يا أماه، حدثيني عنه".

"في تلك الليلة يا سمير. كان باستطاعة الانسان أن يتذكر أن الزمن يمر، فكان عام يذهب دون عودة، وعام آخر يقبل، إلا أن الكثيرين كانوا يتجاهلون هذا، كانوا منساقين لا يلوون على شيء، وكان آخر ما يفكرون به هو الوطن".

"وكنت أنت، في تلك الليلة، تغط في نوم عميق. لا أدري إذا كنت قد شعرت بقبلة يطبعها أبوك على خدك. كانت النخوة تسري في كيانه، وكان كغير عادته فرحاً جذلاً. وحين استفسرت عن الأمر منه، أجاب: "لن تستمر الحال هكذا يا ثريا. في هذه الليلة ستنطلق ثورة، فادعي لنا بالنجاح. يجب أن نثبت أننا ما زلنا ذلك الشعب الحي الذي كان أول من حمل مجدافاً ليركب البحر. وأول من نحت حرفاً ليصنع حضارة.. ركام من الخنوع واللامبالاة وعدم الثقة بالنفس يثقل ظهورنا، ويجعلنا نسلم بكل أمر واقع. لا بد من انتفاضة، لا بد من قوة تغير وجه التاريخ..

ومضى. وكان الصباح يحمل الخبر المريع. ونعيق الصندوق الخشبي اللعين. يتردد في الطرقات يسمّم الجو، ينزّ برائحة زنخة. وكان فحيح ينبعث من كل زاوية ومن كلِّ فجٍّ، يترصد الطرقات ويسدها. لقد قدّر لهم الفشل يا ولدي. ولكن، حسبهم أنهم خرقوا العادة، وحققوا المعجزة بأن شقّوا قوقعة الخنوع، ومحوا أسطورة العفن.

منذ سنين، أحدهم اسمه "سعيد العاص" قاتل في غوطة الشام وفي بعلبك من أجل قضية. وقاتل في الجنوب من أجل القضية نفسها، واستشهد وعلى صدره شارة حبيبة، كان يفتخر بها دائماً. ومن يدري، لعل هذا النعيق الذي تسمعه اليوم سيأتي في يوم ما ليقول، بكل صفاقة، إن الشارة ما كانت إلا نجمة العدو. في الزيف، وعند المزيفين، كل شيء محتمل يا ولدي.

الألم يزداد، يثقل حديثها، تلجم لسانها بين الحين والحين، لتسمح لموجات الألم المتتالية كي تمر، قبل أن تخنقها فتثير قلق سمير. تشد بيديها على بطنها، تتحدث بصورة أبطأ:

- أنظر يا سمير إلى السماء، وقل لي ما لونها؟

- داكنة يا أمّاه.

- ستعودُ زرقاء يا بُني ، وإياك أن تصدق يوماً ما إذا قيل لك أنها لن تكون زرقاء. إياك، حتى ولو كانت ملبَّدة بالغيوم.

وخنقتها موجة ألم أخرى.

سمير يزداد ذعراً وقلقاً، يلتصق بها: ماما.. ماما بك؟ هل أستدعي لك طبيباً؟.

موجات الألم تتلاحق بسرعة، وتصبح تياراً متواصلاً يمنعها من الكلام، يبتلع صوتها قبل أن يظهر. يندفع سمير خارجاً، تتلقّفه الطرقات.. مسكين سمير، لا يدري أنني إستدنت له البارحة ثمن الخبز.. يعدو مضطرباً.. يعدو باتجاه أقرب مستشفى يعرفه يتشبث بثوب طبيب، يرجوه: " أمي مريضة ستلد، ستغسل لك ثياب البيت شهراً يا دكتور".

ويعود بعد حين، تصحبه ممرضة، يتقدمها بخطوات، يريد لو يطوي المسافة بلحظات، يتمنّى لو أنه الممرضة. ثم يدخلان

الغرفة، تقع عيونهما على بقعة كبيرة من الدم، تغطي الأرض ويتخبط فيها طفل وبجانبه جسم ثريا راكدٌ بلا حراك. تقترب الممرضة منه، يتبعها سمير، وتنحني فوق جسد ثريا الممدد على الأرض، تلمسه، تحس ببرودة. تنظر في وجه سمير، يرعبها وجهه الفتي المضطرب. تضمّه برفق، وتحس بجسمه يرتجف في موجة من البكاء. يفلت من بين ذراعيها ويندفع مرة أخرى خارجاً. يعدو باتجاه السجن. يبكي، يصيح: "بابا.. بابا.." ويتردد بكاؤه كاللعنة في الطرقات البلهاء. يلفها الليل الأشهب، ويترسب فيها الوحل. ثم تتلقفه جدران السجن. لم يحسب الخفيرُ له حساباً. إنه طفل صغير. ويقف أمام والده، وراء القضبان "بابا دعني أدخل عندك.. ماتت ماما". عينا أبيه، قبل أن تحس بوجوده، تنظران بعيداً.. بعيداً.. تتمردان على الموت. الموت لا يرعبهما، تهملانه، تتحديانه؛ تصنعان بعيداً.. بعيداً.. هناك في الأفق تاريخ أمة.

# الصخرة

توقف "غالب" عن الحفر، واستقام بظهره، ثم خرج من الحفرة، فلفحه الهجير الصيفي الذي تبثّه الحقول المحيطة به. وشرع ينظر باتجاه قريته ممعن من أول بيت فيها إلى آخر بيت، فظهرت بعض علامات الامتعاض على وجهه وعاد بنظره ليرمق الصخرة الضخمة الراقدة على أرضه بنظرة شرسة، لقد مضت أجيال وهي قابعة فيها. وأخيراً لاذ برطوبة الحفرة، وأحس بلذة في أن يغوص ويغوص في أغوار الأرض، تضاعفها لذة يحس بها هي الأخرى وهو ينخر جذور الصخرة.

ارتفعت الشمس عالياً في السماء، و"سلمى" زوجته، لم تأت بعد. ولعلها لن تأتي، فهي طالما نهته عن هذا العمل، كانت تقول له: "دعك منها إنها ضخمة جداً، ولن تستطيع رفعها، أتوقع في عملك كارثة". وربما تعمدت عدم المجيء. إنها تذكره بأبيه، تشبهه. كلاهما لم يفهما: ذاك كان يلوذ بالصخرة يظن أنه ينتفع بها، يشرف منها على حقول القمح ويصرخ ليرعب الطيور المقتربة منها. أما غالب فلن يفعل كوالده، يكره أن يمتطي العقم أو أن

---

نُشّرت في مجلة بابل البيروتية في أوائل عام 1963

يتسلق جبل العفن. يحس بحمية لأن يقتلع الصخرة، ولكنه بحاجة الى زوجته لتساعده على ذلك، أو أي شخص آخر يستطيع أن يلف الحبل حول الصخرة، حين يرفع طرفها بعتلته، وسيستطيع بعد ذلك أن يربطها وراء ثوريه ليجراها إلى خارج الحفرة.

في بستانهم القديم، حين كان صغيراً، كان يلذّ له تسلّق شجرة مشمش عالية، لكنّه كان يفشل في أغلب الاحيان، فيزحط على جذعها. وحينها يظل والده يتوسل إليه، وكان يرد عليه "غالب" :

– لا يا أبتِ هذه لم تلفحها الشمس، إنها في الظل دائماً وأشم منها العفونة، أريد تلك العالية.

– إذن دعني أسندك قليلاً لأساعدك على التسلق.

– أريد أن أفعل هذا بنفسي.

كان يحاول مراراً، فيفشل في أكثرها، وأبوه يظل يتوسل إليه، وحين كان ينجح في تسلق الشجرة يرمقه والده بنظرة حائرة، لكأنه يريد أن يقول لابنه: "ها قد صعدت فماذا جنيت؟". لكم يكره نظرات والده تلك ولهجته في التحدث إليه! وعاد مرة أخرى ليكمل الحفر حول الصخرة، وحين انتهى من ذلك نظر ثانية، باتجاه القرية، وتوقف بنظره على كل زقاق خارج منها فلم يرَ شيئاً مما كان يرومه: "لن تأتي سلمى بعد الآن، لقد سخرت مني وكذبت علي، لكنني سأقتلع الصخرة، سأقتلعك أيها السرطان الخبيث. لن اتركك تعشّشين في أرضي بعد اليوم أيها البوم الأجرب، لا...لا... ولن أدعك للغد. فأنا أعمل له، لكم اتحرق شهوة يا صخرة لأن أبقر بطنك، وأترك يدي تعبث في أحشائك، لترسم بتراء ثانية! لكم اعشقك يا زانية عموداً لهيكل في إحدى مدن الشمس، برجاً، طريقاً إلى السماء.. أجل... أجل سيكون

ذلك، أنت كم تحديت والدي وحملته على كتفيك كريشة، كجمجمة عتيقة فارغة! أما أنا فلن تتحديني، سأقتلعك أيتها المشؤومة، وأنا الذي سأحملك وسأدحرجك كبرميل فارغ، لأرميك في النهر، هناك حيث سينخر جلدك الصدأ، وتنظرين إليّ عبر السماء".

أتى بحجر صغير، ووضعه بقربه، يريد أن يسند الصخرة به حين يرفعها حتى يتمكن من إدخال الحبل تحتها. وحفر قليلاً تحت الصخرة، مفسحاً مكاناً ليديه، ثم أسند رأسه قليلاً، وتزوبعت قوته في أطرافه ورأسه، رجلاه متصلبان كعمودي هيكل يتحديان الطبيعة. "ارتفعت قليلاً، ارتفعت أكثر، أين الحجر الصغير؟".

يودّ جرّه تحت الصخرة، آه... لا يستطيع أن يسندها بيد واحدة، "أيد واحدة ما بتصفق"...

"سأصفّق... سأصفق بيد واحدة أو قدم".

جسمه متصلّب كخشبة. حصاة محصورة بين رأسه والصخرة، تحتار بين رأسه والصخرة... سأصفق بيد واحدة أو قدم... سأرقص... وسأضحك... حتى أخنق أنفاس العذاب والألم في غرف فولاذية الجدران ولكي تنفذ من خلالها الشمس حيث يصبح النور سفّاحاً قاتلاً.

وقف على رجله اليمنى ، ومد اليسرى نحو الحجر، الحصاة تشق رأسه، الحجر ثقيل لا يتحرك ليدفعه بقوة أكبر، يتدحرج قليلاً. رجله اليمنى تتحرك فوق بعض الحصى، نسي أن ينظف الأرض منها، جسمه يهتز، تهتز الصخرة معه. يتساءل: " لماذا لا أعيدها إلى موضعها لأنظّف الحصى، لن تقوي عليّ، سأقبرك في الأرض".

قدمه تتحرك أكثر... جسمه يزداد اهتزازاً، الصخرة تهتز في

يديه. الأرض قاسية لا تنطمر الحصى فيها "سأروّضك أيتها الأرض". الحجر يتدحرج، يدخل قليلاً تحت شفة الصخرة، يعلق بجذر شوكة ناتئ "آه.. الشوك... الشوك... جذوره في أعماق أرضي. سأتفرّغ لك يوماً أيها الأرعن". يبذل مزيداً من الجهد. الحصاة تدخل في رأسه، والحصى أيضاً تتحرّك تحت قدميه، الحجر يأبى أن يتقدم أكثر. يمنعه الشوك. الساق الأيمن تهتز، يرتجف كغصن في مهب الريح، الدم يسيل من رأسه، ومن جسمه يتقاطر عرق غزير، الريح تشتد، يهتز أكثر، الريح تلقيه على ركبتيه. يداه لا تزالان تحت الصخرة، تشد عليهما بقوة. تنتقم منهما لأنهما اقلقا راحتها. يحاول مرة أخرى، هذه المرة يقف على ركبتيه، "لن أصلي إلا على نعشك يا صخرة". ترتفع الصخرة مرة أخرى. تدخل الحصى في ركبتيه كرؤوس رماح. الماء المالح يسيل من جسمه. تكاد الصخرة تشقّ رأسه. يحس بأنها ترسل ضحكة هستيرية خرساء جامدة، ساخرة منه. لا بأس سيظل هكذا سانداً الصخرة، يهتف مرة أخرى: "لن أتركك ترقدين ثانية أيتها اللعينة. أنت كنت رعباً في قلب والدي". لربما تكون زوجته الآن في طريقها إليه، ظهرا كفيّه يقتربان من الأرض، يظلو النهر الأحمر يجري من رأسه، والماء يتصبّب من جسمه. وتنخفض الصخرة، لكن طرفها المرفوع لا يمس الارض، يداه تمنعانها من ذلك. يداه بين الصخرة والارض متصلبتان، أنفاس الألم تختنق في غرفة فولاذية الجدران، ولكن تنفذ منها الشمس. ويصبح النور سفاحاً قاتلاً. ويحسّ بسلمى فوق رأسه واقفة تستغيث. ويحسّ بالأصحاب حوله يريدون رفع الصخرة ليتمكّن من جرّ يديه. يهتف: "ضعوا الحبل أولاً يا أصدقاء".

# قصة بعنوان "المجرم"

مضى وقت طويل منذ أن دهمة الليل خارج المدينة، ولفظه أحد الشوارع في الساحة الدائرية الشكل، وخيِّل لعادل وكأنه فيها بصقة مسلول، ينفر الناس من النظر إليه، ويبتعدون عنه. رأى أن الساحة الكبيرة خالية من كل إنسان، وهذه ظاهرة غريبة في مدينة كبيرة كبيروت، مع أنه لم يسبق له أن زار هذه المدينة قبل هذه المرة. لربما أن الذين كانوا في الساحة من قبل، قد اشتموا رائحته من بعيد، وعرفوا أنه مجرم هارب من السجن، فهربوا هم بدورهم متعمدين أن لا تقع أعينهم عليه. ولكن هل هو مجرم حقاً؟

إن أهلها لا يعرفون أنه بريء، لم يشأ أن يقتل أحداً. ومع هذا فقد يعتبرونه مجرماً، فيهربون منه. ولكن، ما أدراه بأن الساحة كانت تحوي أناساً قبل مجيئه؟

وجفل على صوت غريب، ينبعث من الساحة، إذ كان للحظة يعتقد أنه الوحيد فيها. ترى من قد يكون هناك؟ وتطلّع إلى مصدر الصوت، ولم يقع نظره إلا على ساعة كبيرة جاثمة فوق برج يتوسّط الساحة المستديرة. إنها تشير إلى الثانية عشر، وإن الصوت لا ينبعث إلا منها، ألا لعنة الله عليها، حقاً ان لفي داخلها شيطاناً. فهو لم يتوقع أبداً أن يسمع منها مثل هذا الصوت القوي.

الثانية عشرة! لم يشعر بالوقت لم يكن يدري أن الليل بلغ منتصفه. إذن كل ما تخيله قبل قليل كان وهماً فالناس قد ناموا،

ولذلك خلت الساحة منهم.

وأراد أن يترك هذا المكان، الذي بدا مهجوراً. فدلف إلى أحد الشوارع، دون أن يعرف إلى أية جهة يؤدّي هذا الشارع، أإلى جهة الشرق أم إلى جهة أخرى؟ إلا أنه رأى نفسه أيضاً، ملفوظاً في ساحة أخرى مستطيلة، وأكبر من الأولى. ولكنه هنا ليس وحده، وهذا ما سرّه. ثم رأى أن في وسط الساحة، نصباً عرف إلى ماذا يرمز، فأدرك أن هذه هي ساحة الشهداء. ودهمه صوت مغنية، يأتي من ملهى قريب، يطلّ على الساحة، وطفق يصغي إليه للحظة. لم يسبق له ان سمع أبشع من هذا الصوت ومع ذلك فهو، بين الفينة والأخرى، وكلما وقفت المغنية عن الغناء، لتسترد أنفاسها، كان يسمع بعض صرخات الاعجاب، والنشوة المصطنعة، يطلقها أناس يستمعون الى المغنية في ذلك الملهى. وأحسَّ بموجة غضبٍ تدهمه، وانتابه حنق شديد على أولئك الذين يستمعون إليها في الملهى، إنهم ليسوا إلا سخفاء يقتاتون على فضلات الحياة. ماذا يقول عنهم؟ . بعض الناس ضاقت الارض مكاناً لعملهم، فتوجهوا نحو الكواكب. كثيرون هم الذين يسهرون، ولكنهم قليلون أولئك الذين يفعلون ذلك من أجل غاية نبيلة. وداهمته موجة غضب أخرى، وتكاثف الحنق في شراييه. يجب أن يتوقف عن ذلك، يجب أن لا يحنق على أحد. ألم يعد نفسه، حين هرب من السجن، بأنه سيعيش على طريقة أخرى، وسيتجاهل كل ما يراه في غيره من مفاسد؟ أجل. يجب أن يفعل ذلك. فلن يستطيع لوحده أن يصلح هذا الفساد.

وعبر ممر السيارات الواسع، الذي يفصله عن نصب الشهداء. وهناك، أوقف شاباً، يبدو عليه التهذيب، وسأله:

– عفواً يا أستاذ. أريد أن اسألك عن بيت شخص اسمه

"سعيد القواق". هل تعرف أين هو؟. وتطلع الشاب إليه بعجب، ولاحظ "عادل " أن وجه الشخص قد تغيَّرَ، فشعر بندم وخيبة أمل، من أثر ذلك. انه يعرف جيداً أن من الغباوة أن يلقي مثل هذا السؤال على أي شخص، يصادفه في الشارع وفي مدينة كبيرة كبيروت. ولكن ما حيلته في الأمر؟ فسليم القواق، الذي هو عمّه، مضى زمن طويل لم يلتق به، حتى أنه نسي الآن اسم الحي الذي يسكن فيه، وقد عرفه من عمّه "سعيد" بالذات، حين زار أهله قبل ثلاث سنوات، في قريتهم، قرب طرابلس، ثم أنه لا يعرف أحداً سوى عمّه في هذه المدينة، يستطيع أن يحل في بيته، ريثما يجد لنفسه عملاً. لقد مضى عليه يوم وليلة، وهو يسير متخفياً عن أعين العدالة، ولقد أنهكه المسير، فصار في أمسّ الحاجة إلى مكان يستريح فيه، شريطة أن لا يكون هذا المكان أي فندق من فنادق المدينة. لأن ذلك يعيده إلى السجن بسهولة. ثم أنه لا يملك في جيبه نقوداً، تمكّنه من دفع أجرة مبيته. وتذكر أن عمه يشتغل على إحدى الحافلات الكهربائية. وهمَّ بأن يقول ذلك للشاب، الذي لا يزال ينظر إليه. ولكنه قبل أن يفعل ذلك، تلقّى عادل الجواب على سؤاله:

– أجل أعرف، إنه هناك. وأشار الشاب بيده إلى مدخل على بعد بضعة أمتار منهما، يؤدّي إلى قبو تحت الأرض.

وشعر عادل بفرح بالغ، لظنّه بأنه سيكتشف بيت عمّه بسهولة، بعد أن دلّه عليه الشاب، وشكر هذا الاخير بأدب. واتجه نحو المدخل. إذاً يبدو صحيحاً ما سمعه، من أن لبعض المدن الكبيرة أحياء تحت الأرض. وأخذ يهبط السلم المؤدي إلى القبو، وما أن بلغ نهايته، حتى رجع على أعقابه، حانقاً على الشاب، فلقد سخر هذا منه وأرسله إلى مرحاض عام. حقاً إن الانسان لا

يعلم بأي لحظة، ينقلب إلى أفعى في مجتمع كهذا. ولم يكد عادل يخرج من القبو، حتى وقع نظره على حافلة كهربائية، تسير على طول الساحة، وتقف في وسطها. وظن بأن عمّه في هذه الحافلة، فأسرع عادل فرأى وجهاً يختلف كثيراً عن وجه عمّه. ومدّ يده إلى عادل وهو يقول:

- تسمح؟

- ماذا تريد؟

- ألا تدري ماذا أريد؟ خمسة قروش.

- لكني لا أملك هذا المبلغ، فأرجوك أن تعفيني عن الدفع. ثم أن عمي يشتغل معك في هذه الشركة.

- وهل هذا يمنعني من أن أطالبك من الدفع؟ على كلّ ما هو اسم عمك هذا الذي تقول بأنه يشتغل على هذه الحافلة.

- سليم القواق، أفلا تعرفه؟

وصاح الجابي بعجب:

- سليم القواق هو عمك!... اعذرني يا أخي أنا لم أعرفك. تعال.

وتبعه عادل حيث أشار الجابي إليه بالجلوس على أحد المقاعد. ورأى الأول أن الفرصة قد سنحت له ليستفسر عن بيت عمه، من شخص لاح له أنه يعرف عمه. فسأل الجابي:

- إذن أنت تعرفه؟

- أعرفه؟ إنه أعزّ زميل لي.

- هلا دللتني إلى بيته، من فضلك؟

- أجل بكل سرور. ابق هنا ريثما أعود إليك. أمامنا مسافة

طويلة لنصل إليه.

ثم راح الجابي يتنقل في الحافلة، وهو يجمع القروش من الركاب. أما عادل فقد جلس والسرور يغمره، ينظر من خلال نافذة الحافلة إلى الأشياء التي تمرّ أمام عينيه. المحلات التجارية المغلقة تتسابق نحو الوراء. صوت عجلات الحافلة ينبعث كالرعد، ثم يخف ويخمد كلما وقفت لتقذف ببعض ركابها في الشارع، وتستبدلهم بآخرين. وكلما تقدمت اكثر، قل عدد الصاعدين إليها وكثر عدد الذين تلفظهم. وأخيرا أقبل إليه الجابي بعد أن وقفت الحافلة، ثم قال له مشيراً بيده إلى بيت قديم.

– انظر. هل ترى البيت الأسمر؟ اسأل عن سليم هناك. وشكره عادل، وهبط من الحافلة، ثم اتجه إلى البيت الذي دلّ عليه الجابي. وهناك التقى بعمّه، وقضى ليلته عنده.

– في اليوم التالي أرشده عمّه إلى عمل يضمن له المعيشة بسلام. وخرج يدفع أمامه عربة صغيرة عليها كميّة من البندورة، وراح يتجوّل في الأحياء المجاورة، وهو ينادي على بضاعته. ومضى وقت طويل، قبل أن يخرج من أحد البيوت رجل يشتري منه بعض حبّات البندورة ليناوله مقابلها عادلاً، نصف ليرة. وأخذ الرجل ما اشتراه وعاد به إلى بيته القريب. أما عادل، فقد رأى أن النصف ليرة، يكفيه لشراء علبة دخان. فترك عربته. وقبل أن يهمّ بدفعها أمامه، ليتابع تجوله، خرج الرجل من بوابة بيته وهو يحمل البندورة التي اشتراها، واقترب من عادل قائلاً:

– تقول زوجتي انها اشترت البارحة، أفضل من هذه البندورة بثمن أرخص.

وأحس عادل بالدم يتصاعد في عروقه، وبغضب شديد على الرجل. هذا الجبان، هل يستحق أن يطلق عليه اسم رجل؟. ولكنه

تمالك، وكتم غضبه وأجابه بلين:

- وماذا تريد مني يا سيدي؟

- يجب أن تستعيدها.

- لكنني، صرفت المبلغ الذي أعطيتني اياه. ثم إنني لا أملك قروشاّ خاصة بي.

- أريد منك ان ترد قروشي، ولا يهمني كيف تحصل عليها.

- لقد اشتريت بها علبة دخان. هل تقبل بديلاً.

- لا...

- أستطيع ان أعطيك كمية أخرى من البندورة دون مقابل.

- قلت لك يجب أن تستعيد البندورة.

ولاحظ عادل أن الرجل يصرّ على طلبه. ولما لاح له ذلك أمراً لا يمكن تحقيقه، تجاهل الرجل، وساق عربته في الشارع. ولم يكد يمشي قليلاً حتى تناهى إلى سمعه صوت خطوات الرجل. وقبل أن يلتفت إليه، ألقى الرجل بما في يديه على رأس عادل، وانهال عليه إهانة وشتماً، ثم بادره بصفعة على رأسه. ولم يعد عادل يرى شيئاً، فقد تمرّد على صبره، واعتراه حنق شديد، فأخذ يهوي بيديه ورجليه على رأس الرجل، بعد أن ألقاه أرضاً. إنه ليحسّ بشهوة لأن يفجّر نقمته، يريد أن يصبّها على أي رأس. وتمادى في انفعال عصبي شديد، لم يعد منه إلى رشده، إلا حينما رأى نفسه في مخفر، أمام أحد رجال الأمن يستجوبه:

- ما اسمك؟

سأله الضابط، فأجاب:

- عادل قواق.

وصاح رجل الأمن كمن اكتشف شيئاً: - عادل قواق!...
إذن أنت المجرم الذي هرب من سجن طرابلس قبل يومين.
- أجل.
- ولم تكتف بذلك فأقدمت على ارتكاب جريمة اخرى؟
- أية جريمة؟
- أو هل نسيت؟ لقد قتلت رجلاً قبل لحظات. أنظر إلى يديك تشهدان عليك. وصاح عادل بعجب:
- أنا قتلته؟... هل مات؟ . لا... لا. هذا غير ممكن أنا بريء ونظر الى كفيه ورآهما وقد تضرّجتا بالدم. ولم يستطع أن يقول شيئاً بعد أن تأكد له الأمر. وأومأ رجل الأمن إلى الحارس الواقف بجانب عادل. وقال له: خذه إلى السجن. وفي السجن أحسّ عادل أنه كان غريباً منبوذاً في هذا المجتمع. وشعر في هذه المرة بارتياح لوجوده في السجن. فقد رأى أن هذا هو أفضل مكان يمكن أن يعزله عن مجتمعه. ولربما لم يكن ليكفر بهذا، لولا أنه فقد هذه المرة أمله بالخروج من السجن.

# بعد ليل أشهب

كان قد مضى عليّ وقت طويل، منذ عودتي من مكتب القائد، وأنا أحاول أن أنام. ولكني كنت ألمس صعوبة في ذلك، إذ لم يكن من عادتي النوم خلال النهار، وفوق ذلك، فالمهمة التي سأقوم بها في تلك الليلة، كانت تشغل فكري، وتمنع النعاس من الاقتراب مني.

كنت قد مللت - ككل جندي في المعسكر - الأعمال الروتينية البسيطة التي كنا نقوم بها كل يوم، ومع الوقت كان قد تنامى عندي إستعداد للقيام بعمل فعال ما... يشعرني بأنني أقوم بواجبي تجاه وطني، وبالتالي يرضي ضميري. ولذا حين عرض عليّ المقدم "غسان" الخطة التي قد رسمها، ما توانيت عن الموافقة عليها، وحين طلب مني أن أقترح شخصاً ما يستطيع القيام بالدور الرئيسي فيها، ما توانيت أيضاً عن عرض خدماتي.

وكانت الخطة تقضي بالاستيلاء على المنطقة الصغيرة التي

---

نُشِرت في مجلة المعارف البيروتية في أوائل العام 1962 أي قبل بدء العمل الفدائي. مجلة المعارف كانت مجلة ثقافية تصدر عن دار الحياة (غير جريدة الحياة) قرب مسرح التياترو الكبير.

كان اليهود يحتلّونها شمال نهر بانياس. وذلك بشن هجوم عليها، بعد قطع طريق الامدادات عنها، وعزلها عزلاً تاماً، حيث كنا نحيط بها من ثلاث جهات، يمر من الجهة الرابعة نهر بانياس، الذي كان يفصلها عن المنطقة المحتلّة من فلسطين. ولم يكن يربط المنطقتين سوى جسر واحد، كانت كل مهمتي تنحصر في الوصول إليه ونسفه.

وحين دخل عليّ زميلي الملازم "عادل" عائداً من مكتب المقدم "غسان"، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً. ودون أن يتكلّم رأيته يفك أزرار سترته العسكرية، ويستلقي على سريره المجاور لي. وكانت الزفرة الطويلة التي أطلقها، على أثر ذلك، شيئاً غامضاً بالنسبة لي لم أدر كنهه. وخيّل لي بأنها ذات تفرّعات تغوص في أعماقه، وتمنعه عن الكلام. وحين تكلم، خيّل لي أيضاً أن مدة سكوته كانت كافية للزفرة التي أطلقها كي تقتلع فروعها ولكي تولي الأدبار:

- ألا تتناول طعام الغداء؟

أجبته:

- كلا. لا أحس بالجوع.

ثم صمتنا للحظة، عاد بعدها ليقول:

- هل تدري؟.. أكثر ما أخشاه هو أن يقال عنا بعد موتنا بأننا كنا متمرّدين، مخالفين للنظام العسكري، وأقدمنا على القيام بهذا الهجوم، دون علم القيادة العليا للجيش.

ويومها أدركت من قوله هذا أنه كان على علم بالخطة هو الآخر. وكان ما حدثني بصدده جال في خاطري من قبل. فالقيادة العليا كانت تعارض الأمر كلما فاتحها "المقدم" فيه بحجة أن

الأمر يحتاج إلى استعداد كاف. إلا أن المقدم غسان كان قد طمأنني بأنه سيسوّي الأمور حسب رضى القيادة العليا. لذلك قررت أن لا أفكر بالموضوع أكثر وأبعد من هذا. ونقلت تأكيد المقدم إلى عادل ولكنه أجاب:

– أعرف ذلك. ولكني لا أفهم معنى تصرفاته، فقد أوكل إليّ مهمة القيادة أثناء الهجوم وقال بأنه لربما سيسافر إلى دمشق.

– ألم يخبرك عن دواعي سفره؟

– لا.

وأطرقت رأسي مفكراً، ولم أدر أي شعور إنتابني حينذاك من أثر ما أخبرني به عادل عن سفر المقدم. وتساءلت: ترى هل في ذلك مؤامرة؟... وما الذي يريده من سفره إلى دمشق ونحن مقبلون لاستقبال أحلك الساعات؟.. هل ينوي أن يدفع بنا في كمين ينجو هو منه بنفسه؟... تواردت هذه الأسئلة في مخيلتي، ولكني بددتها بما كنت قد لمسته من المقدم غسان من استقامة ووطنية. وكان ذلك لحين، إذ أن جذور الشك لم أكن قد اقتلعتها من مخيلتي بعد. وحاولت أن أقنع نفسي بأن خيانة المقدم لن تؤثر في الخطة، إلى درجة نخرج فيها من المعركة وهو يعرف هذه الغاية، ولكنها ليست شيئاً جديداً عند العدو، إن كان هناك إتصال بين الأول والأخير. فالعدو يعلم كل العلم بأننا لا ننوي ذلك فحسب، بل أننا عازمون على الوصول إلى تل أبيب في يوم ما. أجل لقد حاولت أن أقنع نفسي بكل هذا، ولكن ذهبت محاولتي عبثاً.

ثم حاولت أن أنقذ عادل من الوقوع فريسة لمثل تلك الأسئلة، والشكوك التي كانت قد انتابتني، فقلت له:

– حسناً لا بد أنه ذاهب لدعمنا بقوة أثناء المعركة، ولا بد أنه سيقنع القيادة بعدم إصدار أي أمر بوقف الهجوم بعد أن تعلم

به. ولماذا يسافر إذا لم يكن هناك أي ضرورة.

اعتقدت بأنه كان قد اقتنع بتفسيري هذا. أما أنا فلم يكن من اليسير عليّ إقناع نفسي بما كنت قد أقنعت به غيري. ثم تركني عادل وذهب لتناول طعام الغداء. وبقيت أنا فريسة الوساوس والشكوك إلى أن أنقذني منها النوم، ولم أدر متى كان ذلك. إلا أنني حين استيقظت رأيت أن تلك الشكوك كانت وكأنها بالمرصاد لي،فقد هاجمتني مرة أخرى. وبلغت بي، في لحظة ما، إلى حد كدت فيه أن أعدل عن القيام بالمهمة، لولا أن المقدم غسان كان غائباً حينذاك، ورأيت أنه من الخيانة أيضاً الاقدام، في لحظة غيابه، على أمر يخالف ما اتفقنا عليه، إذ ربما كان هناك خطأ في تقديري.

ونظرت إلى ساعتي. كانت تشير إلى الثامنة ليلاً. وكان هناك مدة ست ساعات تفصلني عن اللحظة التي يجب البدء فيها بتنفيذ الخطة. ولكني، على كل حال، رأيت أن المدة قد لا تكفي لقطع المسافة الطويلة التي تفصلني عن الجسر، في حال اعترضت طريقي بعض العوائق غير المتوقّعة.

وكان عادل يغطّ في نومه بجانبي، فأيقظته. وقبل أن أودعه قلت له:

– كما اتفقنا، وكما قال لك المقدم، لا تتأخر بإصدار الأوامر بالهجوم عند أول رصاصة تطلق عليكم.

– أجل لن نتأخر.

ومددت يدي لأودّعه، وفعل هو أيضاً. كان موقفاً صعباً، حقاً. وكنا كلانا نعتقد أنه ربما يكون هذا آخر لقاء بيننا. وظلت يدانا متعانقتين. ثم قال لي:

- لي رجاء أخير عندك؟

فقلت له:

- حسناً تفضل

- هل من الممكن أن يحل محلك جندي ما ليقوم بالمهمة؟

- ولماذا جندي؟

- لأنه ليس من عادتنا تعريض ضبّاطنا للخطر.

قلت له مازحاً:

- لكأنك أحد أولئك القادة الكبار، إنك تتقن تمثيل دورهم جيداً. وأضفت:

- انني آسف لعدم تلبية رجائك. فالذي أعرفه أن الجندي كلما علت رتبته كلما زادت المسؤوليات الملقاة على عاتقه. ثم لا يغرب عن بالك أننا هنا ضبّاط، ولسنا مشوّهي حرب.

وظل صامتاً بعد كلامي هذا لمدة قصيرة، ثم غمغم بعدها وهو يقول:

- كم تتشبّث بآرائك. أنت في أشياء كهذه عنيد.. عنيد.. ولكنك أيضاً رائع وعظيم... أنت تريد ذلك فليكن.. أتمنّى لك التوفيق.

ودون أن أردّ عليه تركته، واتجهت نحو غرفة الطعام فقد كنت أحس بجوع شديد. وحين انتهيت من تناول الطعام كان المعسكر قد افتقدني بين أمواج الظلام.

* * *

كانت الساعة تطاردني برغم بطء خطواتها، وكان الليل حالكاً، يبعث سواده في نفسي شيئاً من الطمأنينة هي أشبه شيء

بتلك الطمأنينة التي كان يحسّ بها لابسو الدروع، وهم ذاهبون إلى ساحات القتال. فقد كانت الأرض خالية من كل شيء إلا مخافر اليهود، وهذه كانت كثيرة أكثر من الشوك حين يتحكّم في حقل أهمله صاحبه ولم يزرعه. وكان عليّ أن أشقّ لنفسي سبيلاً في تلك الأرض تحت تهديدات الساعة اللعينة، وأن اصل إلى هدفي في الثانية أو قبلها دون أن يراني العدو، وبعدها لا يهم ما سيحدث لي.

وكانت المخاوف تدهمني حيناً، فأعاود التفكير في أمر غياب المقدم غسان عن المعركة، مرتاباً من وجود خيانة في الأمر. وكنت وقتها أسير بآلية لا شعورية، لا أعي شيئاً مما كان يمرّ بي أو أمرّ به. وفي حين آخر، كنت أنظر عن كثب، وباهتمام زائد، إلى السلاح الوفير الذي كان اليهود قد كدّسوه في تلك المنطقة. وكنت أقارن ذلك بما كنا نملكه نحن من سلاح قديم لا يكفي حاجتنا. فيقتحمُ أعصابي غضبٌ شديدٌ، يتحوّل إلى نقمة شديدة، حين كنت أدرك أن بقرات أوروبا كلها تحلب في فم ذلك الذئب الرضيع. ويعود السؤالُ: ألا ما الذي جعلنا ضعفاء؟ . ما الذي أوصلنا إلى هذا الجمود؟.. وكانت الأجوبة حقائق مُرّة، ومع هذا ، فكان عندي يقينٌ بأن الإرادة إذا فعلت فهي قادرةٌ على التغيير. فبالرغم من أن كل شيء يموت، لكن الأصالة في الشعوب لا تموت. تبقى، تلازمها كروحها. ان الانسان قد يمرض، أحياناً، ولكن تعلّقه بالحياة لا ينقطع، وهو دائماً في سعيٍ إلى الدواء الشافي.

كنت أعرف جيداً، أن أحداً ما لم يقذفني في تلك الطريق، إلا إيماني بأن هذا الشعب لا بد أن ينتصر يوماً ما، فالأصالة القديمة لم تكن قد ماتت ولن تموت فيه، وأكثر من ذلك، فكنت أعرف أيضاً أن النصر لا يبحث عن أحد، بل على الانسان أن

يبحث عنه ولعمري، كم هو شاقّ البحث!.

حين رأيت مزارع القمح تمتدّ أمامي، أدركت أنني كنت قد قطعت الحزام الذي تحشد فيه قوات العدو. وشعرت بشيء من الارتياح، لأني رأيت السير بين سوق القمح أكثر مأمناً من السير في أرض جرداء. وشقَّيْتُ طريقي عبر تلك الحقول بسهولة، إلى أن قذفتني على مسافة قريبة من الجسر. واستطعت أن أميّز من خلال الظلام الحالك، شبح جندي يهودي يروح ويغدو على مقربة من الجسر. ونظرت إلى ساعتي. كانت قد جاوزت الواحدة والنصف، ولم يكن قد بقي لي من الوقت سوى نصف ساعة، رأيتها كافية لكي أفكّر في كيفية بلوغ منتصف الجسر دون أن يراني الشبح اليهودي المكلّف بالحراسة. وجلست القرفصاء بين سوق القمح أرقب الحارس حيناً، وأحياناً أجول بنظري فوق كل ما كان يحيط بي. ومرت دقائق أخرى دون أن أبرح مكاني، أو أفعل شيئاً. وخطرت لي بعد ذلك فكرة لاحت لي ناجحة. فقد رأيت أنه بإمكاني الاستفادة من القمح المصفر المحيط بي أكثر من مجرد الاحتماء به. ومددت يدي الى جيبي، وأخرجت منه علبة الثقاب التي كنت أحملها، ثم تناولت منها عوداً أشعلته، وأشعلت به القمح. ثم انسحبت من مكاني إلى ضفة النهر. وما هي إلا لحظة حتى رأيت ألسنة النيران، ترتفع في السماء، فرحة جذلى، وهي تلتهم القمح. وخلال النور الذي كانت تنشره، لمحت الجندي اليهودي يترك الجسر، ويعدو مسرعاً نحو النار، وهو يطلبُ النجدة. وبعد لحظة رأيت جندياً آخر يلحقه، فعلمت بأن هذا الأخير كان يحرس الجسر من الضفة الثانية للنهر.

كان الجسر مناراً الآن بأكمله، وكان باستطاعتي رؤية المارين عليه بكل سهولة، ولما رأيت أنه خال جريت نحوه بأقصى سرعة

ممكنة، محني الظهر، كشيخ هرم، حتى أخفي جسمي كلّه في واد. واستطعت أن أصل إلى الجسر دون أن يحس بي احد. ووقفت تحته أمعن النظر في أجزائه علّني أجد وسيلة تؤدي بي إلى منتصفه، مؤثراً عدم السير عليه بل تحته.

كان الجسر مصنوعاً من قضبان حديدية غليظة ومتوازية، متقاطعة مع مجرى النهر. تلتحف لوحاً طويلاً من الأسمنت المسلح تمشي عليه القطع الآلية، وتتوسّد دعامة بنيت في منتصف النهر. وكانت القضبان بارزة من وجهها السفلي، فتشبّثت بأحدها، وجعلت أنتقل عليه باتجاه الدعامة كما ينتقل العنكبوت تحت سقف بيت قديم. وقبل أن أصل إلى هدفي بقليل، كان التعب قد استبد في أطرافي، وكدت أقع على ظهري في النهر، لولا أنني استطعت التجلّد. ووصلت إلى الدعامة وأنا ألهث من شدة التعب. وشرعت بوضع المتفجّرات فوق الدعامة الحجرية. كانت الساعة قد بدأت تبتلع العشرة دقائق الباقية، حين انتهيت من وضع المتفجرات. وكانت أصوات محركات آلية تأتي من الجهة الجنوبية. وأشعلت فتيلاً طويلاً كنت قد وصلته بالمتفجرات، وبسرعة تعلقت مرة أخرى بالقضيب الحديدي، وعدت أدراجي إلى ضفة النهر. كانت النار لا تزال تتأجج. وكان رتل من السيارات المصفّحة قد بدأ يمشي فوق الجسر. وما هي إلا لحظات حتى سمعت صوت إنفجار قوي، رأيت على أثره، الجسر ينهار في منتصفه، وينفصل إلى قسمين واحد في كل ضفة. ورأيت قطع السيارات تتطاير في الهواء وتهوي في النهر. وحينما اطمأن فكري، تسللت من المكان بسرعة متخذاً ضفة النهر طريقاً لي. ووصلت إلى مكان كنت متأكداً من أن أحداً لن يراني فيه. وجلست هناك أرقب مياه النهر التي كانت تمر أمامي مسرعة، كأن أحداً ما كان يطاردها.

كانت أصوات طلقات نارية متواصلة قد بدأت تطرق بأذني. وهي آتية من الشمال. وأدركت أن الهجوم كان قد بدأ. وكنت أشعر بسعادة فائقة لأنني كنت قد قمت بمهمتي بنجاح تام. وسألت نفسي مرة أخرى: ما الذي يجعلنا ضعفاء ونحن نملك كل ما يكفل لنا القوة؟ وبقي السؤال حائراً بدون جواب. وبقيت أصداؤه تتردّد في فكري. ثم تذكرت ما قاله لي عادل: "أنت عنيد.. عنيد... لكنك رائع وعظيم"... وسألت نفسي: هل أنا كذلك حقاً؟.. ربما أكون عنيداً.. وربما يكون عملي الذي قمت به رائعاً، ولكن لم يدُرْ في خلدي أن أدَّعي العظمة.

حين التقيت بعادل، كان صوت الرصاص قد توقف منذ زمن طويل. وكان كل شيء تمّ حسب الخطة، واحتلت قواتنا المنطقة بأسرها. وكانت الشمس قد أرسلت أشعتها لتنساح فوق الأرض، وتحررها من بقايا ليل أشيب محتضر. كنت أحس بسعادة عارمة للنجاح الباهر الذي كنا قد حققناه. ولم يكن شعور عادل أقل من شعوري. إلا أني حين قلت له:

- لم يبق أمامنا سوى تدبير الأمر مع القيادة العليا.

كان ذلك بعد أن تبادلنا التهاني بالنصر، رأيت الدمع بترقرق في عينيه، ثم أجاب:

- لا حاجة لذلك، لقد قام بالمهمة الشهيد المقدم "غسان".

كانت كلماته هذه مفاجأة لي، وسألته:

- هل قتل في المعركة؟

- أجل قتلناه نحن. ولكن دون علمنا. كان هو الذي أطلق النار علينا في بادئ الأمر.

– ولكن ما معنى ذلك؟ هل تعتقد أن عمله كان تكملة للخطة؟

– نعم يخيل لي أنه كان يقصد بعمله ذلك إيهامنا بأن اليهود هم الذين يطلقون النار علينا حتى يدفعنا إلى مهاجمتهم ومقاتلتهم دون تردد. وأعتقد أنه نجح في ذلك.

وتوقف لحظة أردف بعدها يقول:

– باستطاعتنا الآن أن نقول للقيادة العليا أن عمليتنا كلها كانت دفاعاً عن النفس، وذلك حق مقدس لنا تعترف به أنظمة الجيش. وفوق ذلك فإنني أعتقد بأننا لن نلمس منها سوى الثناء لأن عمليتنا لم تكن فاشلة. وبالنسبة لي فإن رضى القيادة ليس بذات أهمية عندي، إذ يكفي أننا حققنا ما كنا نعتقد بأن تحقيقه أمر ضروري، ومفيد.

ثم ساد الصمت بيننا لمدة قصيرة. وقلت له بعد ذلك:

– هلا دلَّيتني على موضع جثته؟

فأجاب:

– طبعاً. تعال معي.

وسرت معه وأنشودة على لساني كانت تكبر عمل ذلك القائد. فكان إستشهاد المقدم غسان قد علّمني ما معنى أن يكون الإنسان، حقّاً، عظيماً.

# جوع إلى المطر

**"إلى اخوتي... الذين توسّدوا الأرصفة، والتحفوا العذاب، والذين حوتهم زنزانات العبودية، بحثاً عن المطر".**

كانت السماء زرقاء والشمس صافية، لكن نسمات حارة كريهة الرائحة، كانت تلفح كل شيء وتثير القرف في كل مكان. وكانت عصافير الدوري، كوحوش كاسرة، تهاجم الحقول المبذورة بالقمح، والممتدة على تلال كسلى. ولعلها كانت تعبّر عن جوع ظل يلسعها منذ أيام الحصاد الماضي حين لم يكن هناك حصاد بالمعنى الصحيح. وكان أبو مسلط يحثّ ثوريه، لينتهي من حراثة القطعة المبذورة بالقمح بأقصر وقت، قبل أن تأتي عليها عصافير الدوري. ومن خلف التلال كان يظهر أبو جاسم، يتبعه قطيع من الأغنام يريد به النهر. وأخذ يقترب من أبي مسلط قليلاً. ولاحظ هذا أي أسى كان يرتسم على وجه أبي جاسم، وأي تعب كان يستبد في أوصاله، من آثر المشي الطويل. أما أغنامه فقد كانت منهكة مثله، وكانت جوانب كل منها قد تقاربت ثم تقعّرت، حتى

---

نُشِرَتْ في مجلة الدنيا الدمشقية. العدد رقم: 614–19. كانون الأول 1962.

غدت كقرب فاضت من الهواء، فنَحلَتْ أجسامها مُثقلةً برقابها التي تطاولت وارتخت، وبرؤوسها التي بالكاد كانت قادرة على حملها فتدلَّتْ نحو الأرض دون أن تلامسها، وما كان على الأرض شيءٌ جديرٌ بأن يسدُّ جوعها.

- العافية يا أبا مسلط.

قالها أبو جاسم، وهو يترك أغنامه تقبع كتلا... كتلا على ضفة النهر، دون أن تنحدر واحدة منها نحو الماء لترد منه، وكان أبو مسلط حينها قد انتهى من حراثة القسم المبذور من الحقل، وتوقّف حتى يستعيد الثوران أنفاسهما، ريثما يبدأ البذر ثانية، واقترب من أبي جاسم وهو يجيبه على تحيته:

- أمدك الله بالعافية يا أبا جاسم.

وجلسا عند طرف الحقل على الأرض الحمراء. ثم أخرج أبو مسلط من جيبه علبة من التبغ الرخيص، صنع منه لفافة لأبي جاسم وأخرى له، وشرعا ينفثان الدخان في الهواء، ثم نظر أبو جاسم إلى السماء بعينين يبرق فيهما اليأس، وقال:

- اعتقد أن الحياة قد ضاقت بنا هنا إلى حدّ لا يحتمل، فالمطر قد قلّ خلال هذه السنوات، حتى كاد أن ينعدم، ويلوح لي أنه في هذه السنة لن يكون أكثر كمية منه في أي من السنوات الماضية.

- لا تيأس يا أبا جاسم، فالفرج عند الله.

وأطلق أبو جاسم تنهيدة طويلة، تبعها صمتٌ، كانت بعض الأغنام، خلاله، تنشقّ عن القطيع، وتبتعد عنه، فنهض أبو جاسم وألقى بعقب لفافته على الأرض. ثم سحقه تحت قدمه، وأشار، وهو يبتعد، إلى الأغنام المنشقة، قائلاً:

– انظر. إنها تظل عبثاً تبحث عن الكلأ . فاللعنة أصابت كل شيء.

وقال أبو مسلط:

– من المحتمل في هذه الحال أنّه لا بد من شيء يزيل اللعنة.

وكان وهو يبتعد، يتبعه القطيع، يرفع صوته أكثر، ليسمعه أبو مسلط:

– سأفعل مثل الأغنام، سأنشقّ، وأسافر غرباً إلى بيروت، يروون أن المطر لا ينقطع هناك، وهذا يعني أن الأعمال كثيرة. اسمع مني يا أبا مسلط، بع هذه الأرض واتبعني، من الجنون أن تدفن النعمة هناك، وتتركها تحت رحمة المجهول أياً كان.

وعلّق أبو مسلط بكتفه كيساً مملوءاً بالقمح، شرع يبذره في الحقل، وحين انتهى منه، قبض بيمينه على المحراث، وهزّ فوق ثوريه قضيباً لدناً طويلاً، حمله بيده اليسرى، ثم صرخ بهما صرخة إعتادا سماعها. فتقدّما يجرّان المحراث وراءهما، وأخذ يفكّر بما جرى من حديث بينه وبين أبي جاسم.

من مدة، وتلك الحكاية... حكاية المطر، قد غدت محور حديث الناس، لقد كان يعلم تمام العلم، بأن هذه البلاد، تعيش مأساة كبيرة حينما لا يكون هناك مطر. وفي السنوات الثلاث الماضية، لم تحصل حادثة شاذّة في قريته إلا وكان سببها المطر:

"خضر" صاحب الدكان الوحيد في القرية، كان يقول منذ سنتين:

" كل عملنا يا أبا مسلط خسارة، لقد شلّت الأعمال، لأن المطر قليل، صدّقني إذا قلت لك إنني أصبحت لا أستسيغ البقاء هنا. فالحياة غدت عبئاً... لا أدري كيف أعبّر لك. يخيّل إلي أنني

أحيا في دنيا كلها قبور. لا عمل، لا حركة، لا حيوية، لكأن الجو أصبح كله مشوباً بالكآبة.

وأين هو الآن؟ لقد أغلق دكانه، من يومها، وسافر إلى بيروت، ليعمل هناك.

"جمعة" صاحب قطعان الغنم، بالأمس جاء إليه من يخبره، نيابة عن الحكومة، أن تربية الماعز ممنوعة، خوفاً على الأحراج، وفي الشتاء الماضي كان قد مرض لمدة شهر لأنه قضى ليلة في البراري. لم يجد قطعة من الحطب ليشعلها، ويتقي بها البرد.

و"جمعه" لم يبع الماعز فقط بعد هذا، بل باع معها النعاج، لأنه شعر باستحالة تربيتها، طالما أن المطر قليل، ثم سافر هو الآخر إلى بيروت.

"غالب" جاره، باع قطعة الارض التي كان يملكها... باعها للحكومة، لأن الضرائب تزايدت عليه منذ أن قلّ المطر، ولم يستطع تحمّل ذلك، فانتهى به الأمر هو أيضاً في بيروت.

ولم يستغرب أبو مسلط هذه الحوادث كلّها، ولربما عاد ذلك إلى كونه قد لاقى مثيلاً لها في الماضي أيام العثمانيين، حين كان الوالي يملك كل شيء، ويتصرّف كما يريد، ثم تساءل في نفسه، فيما إذا كان حقاً هذا الذي يعمله اليوم، عملاً جنونياً كما وصفه أبو جاسم، ولم يظفر من السؤال بشيء ولكن تفكيره قاده إلى أن يتذكّر حديثاً جرى بينه وبين خبير زراعي في هذا الصدد، وفي هذا المكان بالذات، وكان مما قاله الخبير:

– هذا جنون، أنا لم أرَ في حياتي أناساً يبذرون القمح في الأرض، ليبقى تحت رحمة المطر، الناس عندنا لا يفعلون هذا أبداً، لأنه لا يوجد مطر هناك، وهذا أمر يجب أن تتوقعوه، هنا أيضاً.

وأجابه أبو مسلط حينذاك:

– ولكن هذا أمر جرّبناه نحن، وجرّبه أجدادنا من قبل، ولم يكن يدرّ إلا الخير، لا يمكن أن ينقطع المطر عن هذه البلاد، وإذا كان قد انقطع، في الماضي، لبضع سنوات، فسرعان ما كان يعود، غزيراً في السنين الأخرى، وسيكون الأمر كذلك في المستقبل، إذا انقطع، لا سمح الله.

– لا... لا... هذه أوهام... إنها فوضى يجب التخلّي عنها. هذه الوسائل قديمة. يجب أن تستخدموا الوسائل الحديثة، ولم يشأ أبو مسلط حينها الردّ عليه مرة أخرى، فقد فضّل السكوت، لأنه كان يعلم أن كل قديم كان يختفي ويطمس.

وبعد مضي سنوات قليلة، رأى، وكأن الخبير الزراعي كان يقرأ له في كتاب، أعواماً عجافاً لم ترَ البلاد مثلها، ورأى أن أشياء قديمة وكثيرة قد اختفت، أو كادت أن تختفي، ومن يدري؟ لعل المطر كان أحد هذه الأشياء القديمة؟... ورغم ذلك كله، فقد كان أبو مسلط يشعر بصعوبة كبيرة تمنعه من أن يقرّر ترك أرضه، فهو يحبها إلى درجة العبادة، إذ كانت كريمة معه ومع أجداده خلال سنين طويلة، فهل ينكر فضلها، ويتخلّى عنها، لأنها كانت عامراً لبضع سنوات؟.

ومرّ بخاطره أن يرفع نظره إلى السماء للحظة. وحين فعل هذا، رأى بعض غيوم شهباء صغيرة، وقد ظهرت فيها، وبدت له أشبه شيء بقطيع من الأغنام، سارح في مرج، ثم عاد يراقب سكّة المحراث، خوفاً من أن تنحرف، عن اتجاهها المستقيم، وهو في أشد الرغبة، لو كان باستطاعته، أن يعلق نظره الى الأبد على تلك الغيوم. فهو يحبها بمقدار ما يتمنى لو كان باستطاعته أن يمد يده إليها وينزلها إلى الأرض، وكانت الشمس وهي تغرق في الأفق،

تخلف بمغيبها شيئاً من الوحشة والكآبة يخيّمان على الطبيعة، وقد كان هذا يورث شيئاً من الغرابة لدى أبي مسلط ولا يرى له مبرراً إذ كان يعلم أن الشمس لا بد عائدة في الغد، وكان وهو كذلك يقرّر بأن عليه انتظار هطول الأمطار لمدة أخرى رغم كل الأحوال.

* * *

مرت شهور عديدة، والخير لا يزال مدفوناً في الأرض والغيوم لا تظهر إلا لماماً في السماء، ثم يظلّ المطر سراباً فيها، وشعر ابو مسلط، بمرارة، أن الأمر، أمر تحمّل الجوع، لم يعد يتوقف عليه، فقد غدا هذا الأخير يهدد أسرته، وبمرارة أيضاً، قرر ترك أرضه، والنزوح إلى بيروت، وهناك التقى برفقائه، وأخذ يعمل معهم في ورش البناء، بعد أن استأجر لأسرته منزلاً صغيراً في إحدى ضواحي المدينة.

وهنا كانت أشياء كثيرة تثير أسفه وحزنه. ومن هذه الأشياء، وضعه، ووضع زملائه. فقد كان يتذكّر في أي نعيم كانوا يعيشون في وطنهم قبل سنوات. وقارن حالهم آنذاك بحالهم وهم في بيروت. يعملون طيلة النهار، لقاء ما يقذفه في وجوههم صاحب العمل، من دراهم في آخر النهار، والتي قد لا تتجاوز الثلاث ليرات لبنانية لكل منهم.

وتساءل هل كان يتوقّع من قبل، أن الجوع سيوصل هؤلاء الرجال، إلى ما أوصلهم إليه اليوم؟ لا...

لم يكن يتوقّع ذلك أبداً. لكنه، على كل حال، كان يدرك أن جوعهم هو من نوع خاص... إنه جوع الى المطر.

ومرت الأيام ثقيلة على أبي مسلط، حتى كان يوم، أحسّ فيه بدموع عذبة، تنساب من عينيه، لقد عرف أن شيئاً قد حدث في

بلاده. : كانت البروق تتلالأ في السماء، والسحاب يتكاثر فوق السهول العطشى يحمل تباشير شتاء كريم، فعاد إلى أرضه. وكان يدفعه للعودة شوق عظيم إليها. وإيمان بأن الجوع لن يهدده مرة أخرى.

# حيث لا تغيب الشمس

كانت تترنّم ببضع كلمات غير مفهومة. أما هو فكان يجلس بجانبها، وقد انساق في تفكير عميق. منذ مدة وشعور من القلق يراوده، قلق هو مزيج من حقد وغيرة، قلق يتمرجح فيه بين رغبة مجنونة في أن يمتلك كل شيء فيها، وقرف هو وليد اليأس والانهزام. كذلك كان بحراً يهيج ويتخمد، وفي كل موجة هيّاجة، كانت تصطخب في داخله ريح، تكاد تقتلعه من مقعده ليمضي بعيداً... بعيداً عن حاضره وماضيه، بعيداً عن أشيائه، أو ليلف هذه الأشياء في عاصفة تمسخ كل شيء إلاه. وبين الحين والآخر كان يظل ساهماً يتطلع إلى وجهها اللامبالي، فتارة يرى في صخب عينيها شفقاً صباحياً، يزرع فيه حكايات الحب والنار، شغفاً كذلك الذي كان يقترن بأغاني صبايا ضيعته، وهن يخرجن مع الدوري والنسيم الرطب، إلى الكروم. وتارة أخرى كان الصخب يتلاشى ويتحوّل إلى شفق أصيلي، تفوح منه رائحة التعب والشيخوخة والموت، هكذا تعلّم في ضيعته ألا يُدفن الموتى إلا وقت الأصيل.

لم يكن "مريد" جزءاً من ماضيه، ولكن هذا كان يزرع في

---

نُشِرَتْ في مجلة بابل البيروتية عام 1965.

دمه حقداً شرساً كلّما تذكره. كان مريد يحمل في يده مرآة، تترصد "رائد"... مرآة تقول له هذا أنت. فيرى نفسه بدوياً قروياً يحمل بيده خنجر كرامة حساسة كنسيج العنكبوت، وشرف من هو مذبوح دائماً. لكم تمنى أن يكوّن من جديد! لكم تمنى أن يسحق بدويته تحت قدمي إنسان جديد، يعانق الشمس ولا يخاف على كرامة أو شرف، ينطلق وفي إنطلاقته لا مبالاة، كتلك التي على وجه "ليلى"! لا مبالاة ترفعه تطير به وتحته تنفرش جبهة ليلى، بلهاء، مبهوته، معلّقة على قصب هشّ.

ولكن "مريد" هذا الشبه المقيت، يظل تحدياً مجهولاً، ووجه غراب عابس.

خطر له أن يسألها:

- ليلى...!

وظلت للحظة بعيدة عنه قبل أن تجيب.

- ماذا؟

- من قد يكون؟

- عمن تتحدّث؟

وقال ساخراً:

- أحقاً لا تعرفين عمن أتحدّث؟

فأجابته هي الأخرى بشيء من السخرية

- أعتقد أنني لن أهتدي إليه، حتى لو تركت لي الفرصة لأفكر بذلك، لمدة تتخطى الزمن. ولكن لماذا هذا التلكؤ في ذكر اسمه؟

- لسبب ما، تركت ذلك لك. ولكن لا بأس أن أغيّر شكل السؤال:

- "مريد". هل هو جزء من الماضي؟

قالت: هو أحد زملاء المدرسة، لطيف ومهذب. أترى قد أدركتك الغيرة؟

وصعق لهذه الكلمة ولكنه في لحظة كان قد جمع بعض الكلمات ليجيبها.

- ليس بهذا الحد. ولكن أرجو ألا تكوني قد نسيتِ أنني عرضت عليكِ الزواج قبل أيام.

- لم تتلق الجواب بعد؟

- ليس المهم أن يكون الجواب شفهياً.

ضحكت ضحكة طويلة ثم قالت:

- أتراك تعتقد أنني انصرفت عنك؟ ومالت برأسها على كتفه ثم أردفت تقول:

- ألا تصدق أنني بحاجة إليك؟

وأحس بأنفاسها تلفحه، وشعر برعشة، وبدت عليه علامات الإرتياح، ربما لأنها أبدت له ذلك الضعف الذي يجعل المرأة تنضوي دائماً تحت جناح الرجل، وأطرق يفكر طويلاً... لقد كان مريد ما يزال هاجساً رغم ما بدا منها، ولكن ترى هل من المعقول أن ينسحب هكذا، من أول معركة له؟... لا... لا يجب أن ينتقم، يجب أن لا يترك الجوّ خالياً لذلك المتخايل.

وأجابها وهو يحيطها بذراعه:

- لم أقل ذلك.

- إذن خذني إلى البحر وبعد ذلك سنتحدث.

- أتحبين البحر؟

– أشتهي أن تغمرني مياهه في هذه اللحظة، إلى أن أرتوي منه، الطقس حار جداً.

– أنا لا أحبه. ومع ذلك سآخذك إليه، إنني مشدود إليه بطريق غير مباشر.

* * *

حين بدت له السباحة في البحر رائعة سألها:

– عجباً. لا أحس بجمال الأشياء إلا بعد لمسها.

قالت:

– يبهرني ما ليس في يدي.

كانت جميلة تتلوّى في المياه كسمكة بحرية، وكانت الغبطة التي تبديها توحي له بأنها مقطوعة الجذور عن كلّ ماض، كانت تبدو كطفلة، لم تدهمها هواجس بعيدة ولا هموم عميقة. ذلك ولّدَ فيه شيئاً من الإرتياح، لأنه كان يعرف بأنها قد تنسى كل شيء في لحظة، ولكنها لا تجهل أنها معه. كان أضعف من أن يصمد أمام رعشاتها، كل ما كان فيها من طفولة كان يجذبه إليها.

بعد مدة قادته إلى الشاطئ، واستلقت على الرمل وهي تقول:

– لقد تعبت سنستلقي قليلاً في الشمس.

– أهذا كل ما تكنّين من حب للبحر؟

– قلت لك لقد تعبت.

وحدّق بعيداً، كان كلامها يوحي إليه بأشياء كثيرة، وعلقت عيناه على الناحية الغربية حيث كانت الشمس تنحدر بسرعة، وقال لها:

– فات الأوان، الشمس تبرد وتغيب.

– على أية حال لن أمكث طويلاً. ولكن يسرّني أنها تفعل ذلك. أحبّها تغيب وتشرق، ثم تغيب وتشرق، وهكذا تظلّ تتجدد إلى الأبد. لو بقيت تلازمنا بلا غياب، فمن يدري ما كان سيحدث لي، ربما كنت سأنتحر أو أرحل إلى بلاد أخرى بحثاً عن الليل أو عن أي شيء آخر غير الشمس.

توقفت قليلاً ثم أردفت تقول:

– أواه... أجلّ الليل... ها هو قادم ألا ترى أنه جميل.

– ربما... إنه المجهول... والمجهول ساحر... أما أنا فأكرهه، ألا ترين أنه يصبغ كل شيء جميل ويحجبه بوجهه الأسود؟

– أتراك تعني بالجمال ما تراه بعينيك؟ أتدري أن أحلى اللحظات عندي هي تلك التي أنسلخ فيها عن هذا العالم، وأعيش المجهول؟

واستلقى هو الآخر بجانبها على الرمل. بينما هي كانت قد استرسلت في أغنية:

على وقع أمواجك يا بحر سأجدل صلاتي.

ولنسيمك الهامس سأهمس:

شراعي لك، فاحملني...

احملني بعيداً... بعيداً هناك...

حيث تنحدر الشمس.

وتنحدر بلهفة وشوق.

لتعانق المجهول.

بي أنا أيضاً شوق،

لغيمة لا اسم لها

تمطر الحب والسحر وأشياء غريبة.

هنا يا بحر سأنتظر

سأغدو على شاطئك

لا تمل الانتظار

فلكل صخرة،

وفي كل لحظة،

لك موجة عاشقة

تركع أمامها ثم تنكسر.

كان حينذاك قد تمادى في تأمل عميق، كانت عيناه معلّقتين على الشمس وهي تلامس صفحة الماء. كانت تذوب وتذوب، فتصبغ وجه البحر من الجهة الغربية بلون أحمر قان كالدم. وكان يصرخ في أعماقه صوت:

– هناك... هناك ستموتين أيتها العاهرة. لن تصلبي عينيّ بعد الآن على وجهك، لقد انتهت أسطورتك إلى الأبد.

ثم غابت الشمس وتلاشى كل شيء، حتى الدم لم يكن قد بقي منه أي أثر، وكان مجرد طيف، وأحس بخيبة عارمة وسرت في كيانه موجة غريبة، كانت الشمس الغاربة تلوح له من تحت الأفق وهي تبزغ ضاحكة، بشفق صباحي جديد، وعلى عالم آخر، وكان أكثر ما يعنيه هو العالم الآخر.

جاءه صوت ليلى

– رائد سنستأجر لنا مقصورة بجانب البحر لقد أعجبني الليل. حبذا لو نقضيه هنا.

– تستطيعين أن تفعلي ما تشائين، من الآن وصاعداً. لا بد أن نفترق.

– لكنك قلت أن الليل رائع.

– وقلت أنه كريه. أحسّ به يلدغني.

تركها وسار وكان صوتها يأتي من ورائه.

– ألا يمكنني أن أراك مرة أخرى؟

توقف قليلاً وجعل يتأملها للحظة ثم أجاب:

– ربما... ربما...

– أين؟

– حيث لا تغيب الشمس.

وتابع سيره. كان يحس أن البدوي قد مات فيه إلى الأبد. وكان يخيل له أن وجه ليلى يغرق في تلافيف ليل منافق شرس.

# شمس جديدة

كانت نُسيمات الخريف الناعسة بدأت تشوب الجو خارجاً، منذ مدة. وكانت قطعان من السحب السوداء الصغيرة، أخذت تناطح أرجاء السماء، وترسل بين الحين والحين قرقعة خفيفة. أما عقربا الساعة الكبيرة الملتصقة بالحائط المواجه لي، فكانا ، وبكسل مزعج، يقتربان من الثانية .

ونهضت من مكتبي، حاملاً بيدي ورقة بيضاء، كتبت عليها بعض الكلمات، ثم دخلت بها إلى غرفة المدير وسلمتها إياه. وشرع يقرأها، بعد أن انتهى من جمع بعض الأوراق المتناثرة فوق طاولته، استعداداً للانصراف:

"السيد مدير التربية والتعليم بدمشق"

"أرجو العمل على نقلي إلى مديرية التربية والتعليم بالحسكة ولكم شكري".

"وهيب قنواتي"

---

كُتِبتْ في 1 حزيران 1962 ونُشِرت في مجلة بابل البيروتية في أوائل عام 1962

ورفع نظره عن الورقة، وتفرّس في وجهي قليلاً، ثم ما لبث أن قال:

- حسناً سأنظر في الطلب.

وشكرته، ثم انصرفت، وأنا أتنفّس الصعداء، فلقد شعرت وكأنني ألقيت حملاً ثقيلاً عن كاهلي، إذ كنت قد سلخت، حتى ذلك اليوم، ست سنوات في دائرة التربية والتعليم بدمشق. وبعد هذه المدة الطويلة، كانت رغبة جامحة، تعترم في نفسي لأن أغيرّ الجوّ الذي كنت أعيشه.

كنت لا أرى نفسي أكثر من دمية تعمل بصورة آلية. فالملل كان يغرقني ويكتم أنفاسي، وأشياء كانت تظل، هي هي تكرّ وتتكرر معي كل يوم:

بردى وهو ينساب بتكاسل مملّ، منذ الأزل، في مجرى صغير خانق، لا يفارقه أبداً، كلحن جنائزي لا ينتهي.

والحافلة الكهربائية تظلّ تتدحرج في الشارع، فوق القضبان الحديدية. وهي ترسل ضجيجاً مزعجاً، كانت أذناي قد فقدتاه على مرّ الزمن، بعد أن اعتادتا عليه.

وأنا: تارة على ضفاف بردى، وأخرى في بطن الحافلة الكهربائية، أروح وأغدو كالمكوك، من البيت إلى الدائرة وبالعكس. يتراكم في قلبي غم، كان يورثه ذلك اللحن الجنائزي ويعصف في رأسي ضجيج الحافلة كمطارق حديدية. وترعبني الرتابة المتكاتفة حولي. فكنت أشعر برغبة عارمة لأن أصرخ: "بردى!... يا لعارك الكبير!... عظمتك كلها تتكاتف في مجراك الصغير، وجريانك الرتيب الممل هذا. ماذا لو تمردت الحياة يوماً فيك، فتتمرّد على مجراك أيها الكسول؟ أجل ماذا؟... وأنت أيتها الحافلة، ماذا لو تمردت على القضبان التي تكبّل أرجلك؟".

وحين كنت أنتهي من عملي، كانت تستقبلني في البيت زوجة تخبو يوماً بعد يوم، نحيلة، شاحبة. كانت شفتاها، حين تراني، تنفرج عن ابتسامة سرعان ما كانت تخنقها نوبة سعال حادة. ولا أدري أية قدرة إلهية كانت قد جعلت منها أماً لثلاثة أطفال. وأم عجوز كانت تظل جالسة أمامي، ونظراتها لا تفارقني. لكأنها كانت تريد أن تشبع عينيها من مرآي، قبل أن تفارقنا الفراق الأخير، الذي كان يبدو لها قريباً.

لقد كان أمراً غريباً جداً لمدير التربية، أن يدخل دمشقي، ويطلب نقله من مدينته إلى تلك المدينة الريفية النائية، في أقصى الشمال. ذلك أن الحسكة، لم تكن تلك المدينة التي يتهافت عليها موظفو العاصمة. إلا أن حنين الريف عندي كان لاهباً، فقد كنت أحسّ بحاجة ماسّة إلى بضعة أشهر، أقضيها في هدوء وسكينة، بعيداً عن دمشق الصاخبة، والزوجة الشاحبة.

ووصلت إلى البيت، واستقبلتني زوجتي بابتسامتها الناعسة المعتادة. ولم تكن تلك الابتسامة المصطنعة لتخدعني، فما كنت أرى فيها أكثر من مجرد عمل روتيني، تتصنعه زوجتي لتدخل البهجة إلى قلبي، وتنسيني همومي، لأن ما كانت تشعر به وتقاسيه من آلام، كان كافياً لأن يقتل كل ابتساماتها في المهد.

كانت شفتاها دائماً وهي تبتسم جامدتين، وفي جمودهما، كانت خيوط وهمية لألم دفين تظل تجذبهما لبعضهما البعض. وكان ذاك الألم يتكاثفُ، على أشلاء ابتسامة و على انفجار سعال حادّ.

– لقد انتدبتني الوزارة في مهمة خارج دمشق يا منى، وقد تستمر بضعة أشهر.

هكذا آثرت الكذب عليها، متحاشياً أية تساؤلات مضايقة، قد

تواجهني بها لو أخبرتها بحقيقة أمري.

وارتعدت زوجتي لأول وهلة، ولكن سرعان ما استعادت هدوءها، وعادت الشفتان لتنوءان بابتسامة باهتة، كانت قد تلاشت لوهلة. ثم قالت:

- سنرافقك إذا شئت.

وأجبتها فوراً:

- لا... لا داعي لذلك. سيكون صعباً هناك، بالنسبة للأطفال.

ثم أشحت بوجهي عنها، وتلقفتني أريكة مجاورة، بين أحضانها.

* * *

رغم وداعة الحسكة، تلك المدينة الصغيرة، التي تنام، كطفلة صغيرة، على ذراع "الخابور"، ورغم الهدوء الذي يسودها؛ فإن الأيام الأولى التي أمضيتها فيها، لم تكن لتغيرّ من الضيق الذي كان يشد بكلاّبه على قلبي، والتبرّم الذي أحال المدينة في عيني إلى شبه مقبرة، والملل الذي كان يعصف في وجهي كرياح صيفية حارة، فأتراخى على كرسي في مقهى من المقاهي كما تتراخى الجفون الناعسة حين يدركها الوسن. فدمشق بكل ما فيها، بالزوجة الشاحبة العليلة، بالصخب الذي كان يقفز عليّ من كل نافذة من نوافذ أبنيتها، بالحافلة المتزحلقة فوق القضبان الحديدية، كامرأة بدينة تتزلّج على الجليد، دمشق بكل هذا كانت تبدو لعيني كشجرة، وأنا كطفل صغير، أظلّ معلّقاً بها بخصلة من شعري. والحسكة بكل ما فيها، ببله تنضح به وجوه غريبة، لا أعرفها، وتبدو أشبه شيء بوجوه دمى متحركة؛ بسكون مفرط، يتراكم في كل مكان، وينطق بصرخات مرعبة من الوحشة؛ بزميلة في العمل

يرعبها منظر وجهي، الذي ينوء وينوء تحت ثقل تكشيرة غامضة، ويظل مطرقاً فوق الطاولة، فتنزوي وراء آلة تلعب أصابعها بها، بعصبية بالغة. الحسكة بكل هذا، كانت تبدو أشبه شيء بوحش فاغر فاه، ينتظر سقوطي من الشجرة ليتلقّفني ويفترسني.

كانت زميلتي رجاء تقاسمني غرفة من غرف الدائرة. وكان عملها على الآلة الكاتبة يقتصر على طبع الرسائل، الصادرة والواردة من وإلى الدائرة. وكانت أغلب هذه الرسائل تمر من مكتبي، فكنت أنسخها بخط يدي قبل أن أسلّمها لها. وكان يبدو غريباً ، أن تظلَّ هي، وأظلُّ أنا، طيلة فترة الدوام، على مكتبينا ساكتين، لا نتفوّه بكلمة واحدة، إلا فيما يتعلق بعملنا. والحقيقة أنني لم أكد أجد رغبة في الكلام. وربما لم أكن أجدُ كلمة، يقتضي أن أقولها لها. لقد بدونا غريبين عن بعضنا وكان هذا يبرّر موقفي نحوها في البدء. إلا أن ذلك كان من غيرِ المعقولِ من أن يستمرّ أكثر من بضعة أيام. وهكذا حصل، فقد بدا لي ذات يوم، وكأن رجاء قد ضاقت ذرعاً بالأمر، إذ بعد أن سلمتها رسالة صادرة، لتطبعها على الآلة الكاتبة، رأيتها تعود بالرسالة نفسها، وتقترب مني لتقف بجانبي وتقول:

– عفواً يا أستاذ، ما هذه الكلمة؟... إنني لا أستطيع قراءتها.

كانت هذه المرة الأولى، التي تبدي فيها رجاء إشارة بغموض خطي. ونظرت فوق الورقة، حيث تشير بإصبعها، ولكنني سرعان ما رفعت وجهي عنها، وتطلعت في وجه رجاء بشيء من الدهشة والتساؤل. كان الغضب يصطخب في عروقي، وكان صدري وقتها أضيق من أن يسع أية مشاكسة. وكدت أصفعها بالورقة، وأصرخ في وجهها:

– أي غموض في الكلمة أيتها السخيفة.

ولكن الكلمات اختنقت وتلاشت، كما تتلاشى فقاقيع الهواء حين تبلغ سطح الماء. وشعرت لتوّي بتأجّج نيران غضبي يخبو شيئاً فشيئاً، تحت تأثير ذلك الجمال البابلي البكر الثائر الذي لم يروِّضهُ الزمن، وذلك الحسن الصاخب الذي كان يتدفق من وجه رجاء المُسَمَّر فوق وجهي. فكانت ضحكات سحرية صامتة تصطخب في بحر عينيها، واختلاجٌ يموجُ على شفتيها كاختلاج صفحة الماء الصافي، حين يناغيه نسيم لطيف.

أواه يا إلهي... أي شعور دغدغني آنذاك، وأي سحر وحشي جارف كانت تملكه هذه الفتاة، حتى استطاعت حملي إلى ذلك الجو الحالم. لقد تجمدت فوق الكرسي، كأن مخدراً جالَ في أوصالي، وبدون إرادة زاغت عيناي، باتجاه الحلقة الصفراء، التي تقيد إحدى أصابع يدي اليسرى:

- أنا متزوج وأب لثلاثة أطفال.

وعدت بعينيّ لأتأمَّلَ، مرَّةً أخرى، الوجه الجميل المُسَمَّرِ فوق وجهي. وخيل لي أن رجاء قد فهمت ما حدثتها به عيناي، فكانت الضحكات السحرية تزداد صخباً وثورة في عينيها. وكانت خلجة أخرى قد ارتعشت على شفتيها، وبدت حينها أشبه شيء بموجة صاخبة، تريد أن تكتسح كل ما يقع أمامها. ووسط ذلك كنت أهيم، وأهيم في ذلك البحر اللانهائي، مشدوهاً، مشدود النظرات إلى ذلك الصخب الذي كان يتدفق من وجه رجاء الساحر. فأتخيل جمال الملكة سميراميس تخرّ الأسود أمام هيبته راكعة محنية الرؤوس. وكانت ضحكتها تغفو شيئاً فشيئاً، فلا يبقى على شفتيها المقتربتين من شفتي، سوى تلك الاختلاجات والارتعاشات، التي كانت ترسلها ثورة ودعوة حرة، تهيج وتموج في كيانها.

ومنذ ذلك اليوم، سارت علاقتي مع رجاء على هذا المنوال، وأصبحت بالنسبة لي، رفيقة لا يمكنني الاستغناء عنها. تلك المخلوقة كانت قد قلبت حياتي كلها وأنستني كل ما قاسيته في الماضي من تعاسة وحرمان. وبدت لي الحياة أشبه شيء ببحر لانهائي من السعادة. كلما أعبّ منه جرعة أحس بمزيد من الظمأ إليه. إن ما كنت قد رأيته من الجميلات، كان عدداً كبيراً وكلهن كن مجرد أطياف وصور باهتة، تمر بي كل يوم. إلا رجاء... رجاء ذات الوجه الصاخب، والعينين الضاحكتين أبداً، اللامباليتين بكل ما تقعان عليه. لقد كانت فتاة من نوع جديد. أحببتها، وأحببتُ النداءَ الذي كان يتماوج في عينيها.

كانت تعرف أنني متزوج، ولكنها لم تكن لتعير هذا الموضوع أية أهمية. ولقد تعلمت منها أنا أيضاً، أن لا أبالي بشيء، فنسيت حياتي الماضية كلها... نسيت دمشق بصخبها، وضجيجها. ولم يكن قد بقي لها في مخيلتي، سوى صورة تلك المدينة، الخاشعة بتواضع وسكون على أقدام قاسيون. نسيت الزوجة الشاحبة فيها، المتخامدة، والأمَّ التي تنتظر قدوم ابنها من العمل، بفارغ الصبر، لتجلس أمامه، تعب من مرآه ما تعب، قبل المغيب الأخير.

لقد مضت مدة طويلة لم أرسل خلالها رسالة إلى الأهل في دمشق أخبرهم فيها عن حالي، وأسألهم عن حالهم. ومضى وقت طويل أيضاً، قبل أن أتلقى رسالة من البيت، تخبرني أن زوجتي "منى" مريضة، وطريحة الفراش. ولم أتهيَّب الوضعَ لأنني كنت أعرف أنه كثيراً ما تعتري مُنى مثل هذه النوبات، بين وقت وآخر. وكل ما فعلته أنني اعتذرت لها لعدم إمكاني القدوم إلى دمشق حينذاك. وأرسلت إليها ببعض الدراهم، طالباً منها أن تستشير طبيباً ريثما أنتهي من مهمتي، وتسنح لي الفرصة بالعودة.

واقترب موعد عطلة نصف السنة. وشعرت أن الخمسة عشر يوماً التي سأقضيها بدون رجاء ستكون شيئاً لا يمكن تحمّله، ثم تساءلت في نفسي ترى إلى أي حد ستستمر علاقتي معها على هذا النمط؟. فلقد كنت أخشى أن تفلت من يدي يوماً ما، خصوصاً وأنني رجل متزوج، ولم أقرر ما سيكون مصير زواجي. وإن هذا، كان من الممكن أن يورث في نفسها يوماً ما، شعوراً بالخيبة. ولقد تحاشيت خلال هذه المدة كلها أن أعرض عليها الزواج، مع أنني أحببتها، واشتهيتها بقوة. إذ كنت أشعر بأنه ليس من الانسانية أن أترك منى مريضة ينهش المرض جسمها.

ولكنني أخيراً صممت أن أعرض الزواج على رجاء وأترك بقية الأمور رهناً بمشيئة القدر، حتى ولو أدت بي هذه المشيئة إلى امتلاك زوجتين، إحداهما في دمشق والثانية في الحسكة. وجئت إليها قبل العطلة بيوم، وحدثتها عن رغبتي في الاقتران بها. ولكنني رأيتها وكأنها قد فوجئت بطلبي فتغير مظهرها، وبدت هادئة جداً. وظلت ساهمة لبرهة وهي تفكر، ثم نطقت:

– هل فكرت قليلاً يا وهيب، قبل أن تعرض عليّ الزواج؟

قلت:

– أجل لقد فكرت، ووجدت أنه من الصعب عليّ الاستغناء عنك.

وبهدوء أكثر من ذي قبل قالت:

– أنت مخطئ فأنا لست إلا شيئاً عابراً في حياتك. لقد ظننت في بادئ الأمر أنك ستفهم هذا، خصوصاً وأنني، كما نعرف، لم أعر موضوع زواجك أي اهتمام.

وتوقفت قليلاً ثم أوضحت تقول:

– يجب أن لا تنظر اليّ كما وأنَّ فيَّ ما يكمِّلُ نقصك. مثلُ هذه النظرة، تشعرني بالنقص. الحقيقة أن التي أمضيت معها هذه الأيام كان من الممكن أن تكون غير رجاء، كما أن الشخص الذي أمضيت أنا معه هذه الأوقات، كان من الممكن أن يكون غير وهيب. الشيء الذي لا يتغير هو زواجك وأولادك، ومآبك إليهم يفرضه عليك الواقع والضمير.

– ولكنني تعيس... تعيس مع زوجتي يا رجاء.

– التعاسة ليست إلا وهماً. فالانسان هو هو لا يتغير إنما الذي يتغير، هو شعوره. وهذا التغير يتوقف على مقدار ما يتحقق من رغبات. وهو لو استغنى عن البعض منها عن ارادة منه لا قسوة، لتحققت له السعادة الدائمة. ثم إن نظرتك إليّ هي نظرة خاطئة، لأنك – كما يبدو – لم تفهم موقفي. فقد يكون لنا طريق واحد نلتقي فيه لمدة، ولكن هذا اللقاء ليس أكثر من صدفة. وفراقنا لا مفرّ منه، لأن لكل منا هدفه. وما سنشعر به يجب أن لا يتعدى شعور أي راكبين في قطار، تصاحبا، ثم افترقا.

وانتفضت صارخاً في وجهها:

– ما هذا يا رجاء؟ أنت تبدين في حديثك وكأن شيئاً ما قد غير رأيك، فليست الأمور كما تتصورينها، نحن كلانا ننشد الحب، وهذا الحديث لا يبرر انهزامك.

– لا بل الأمور ليست كما تتصورها أنت. فأنا لست مهزومة، وإن كنت قد شعرت بشيء من خيبة الأمل. وأرجوك أن لا تظن يوماً ما أننا منينا بالفشل. ففي نظري، وبالنسبة لي، علاقتي معك هي أشبه شيء ببحث عن كنز في قعر بئر، وهذا البحث لم ينته بإنتهاء هذه العلاقة لأنك، واسمح لي أن أصارحك بهذا، لم تكن أنت الكنز. أما فيما يتعلق بك فلا أدري، الذي تبغيه حقاً، ولكنني

أرى أن طريق السعادة ما زال مفتوحاً أمامك، إذ غالباً ما نظن أننا فشلنا في أشياء كثيرة في الحياة، دون أن ندري أن هذا الفشل ربما يكون النجاح بعينه.

- تقصدين أن الحب لم يكن موجوداً بيننا؟

- شيء من هذا.

- أمر لا يصدق. لا بد أن شيئاً ما يجعلك تمتنعين عن الإجهار بشعورك.

- أقول لك أن الحقيقة ليست كما تظن. ولكن لك مطلق الحرية في ذلك.

وتركت رجاء، بعد جدال طويل، على أمل أن أراها ثانية، وأعاود الكرّة معها، علّ الأيام تغيّر رأيها وتزيل الخوف الذي كنت أظن بأنها تشعر به، كشعور كل فتاة تحاول الزواج من رجل متزوج. بالإضافة إلى ذلك، كنت لا أتصور أن تلك المخلوقة، التي ألهمتني الحب يمكن أن تتغير بهذه السرعة. لكن كل هذه الظنون خابت، فقد رأيت رجاء في عصر اليوم التالي، متشبّثة بذراع شاب وسيم، وهما يسيران في منتزه المدينة. كان ذلك السحر الوحشي قد عاد ثانية يهل من وجهها بعد أن كانت روّضته بالأمس. إلا أن وجهها بالعينين الضاحكتين، واللامباليتين بكل ما تقعان عليه، والموجة الصاخبة على الشفتين، يريد أن تكتسح كل شيء، لم يكن ليثير في نفسي ذلك الشعور الذي كان يثيره بالأمس. بل بالعكس فقد أحسست بالغضب يرشح من كياني، وبالغيرة تفتُّ من أعصابي.

وعدت حالاً إلى البيت، وحزمت أمتعتي وحوائجي، وبعد يومين، وصلت دمشق. ولكن ما عهدته في مدينتي سابقاً، لم أجده في ذلك اليوم، فلا الصخب، ولا الضجيج، ولا أي شيء آخر.

كانت دمشق تعيش في مناحة، إذ كان بردى قد تمرّد وثار في ليلة سابقة، واكتسح ما طاب له من بيوت. وراعني أنني لم أستطع أن أعثر على مكان بيتي، بين الأنقاض المتراكمة على ضفاف النهر. وأمام ذلك وقفت حائراً لبرهة، ثم أحسست بيد على كتفي تهزني ثم تمتد إلى يميني، وتتناولها في هزة خفيفة.

– البقية في حياتك، كل ما استطعنا أن نفعله هو أننا أنقذنا الأطفال فقط، واستطاعت العجوز أن تنجو بنفسها، أما منى فقد كانت طريحة الفراش، ولم تكن تقوى على السير. فبقيت في البيت ثم...

ولم يستطع جاري "هيثم" أن يتم كلامه، فاختنق صوته بالعبرات، وتغرغرت عيناه بالدموع. ولكنني كنت قد فهمت كل شيء، فوضعت رأسي بين يدي لبرهة، والأسى يفطر قلبي. وسمعته يخاطبني ثانية:

– الأطفال مع الجدة هم في بيت أخي في المهاجرين.

سرت معه بصمت. كان بردى قد عاد يسير في مجراه القديم، وكانت الشمس وهي تغرق في الأفق تستغيث بقمة قاسيون، وتعمّمها بهالة من النور. ويبدو أن الليل يتراكم على الوجوه، المنساحة في الشوارع. وبين تلك الوجوه، كنت أحس بحاجة ملحة إلى ابتسامة واحدة فقط، هي ابتسامة زوجتي منى، فعلى أشلاء ذلك الليل وتمطّي الغد، كنت أتصور منظر الشمس الجديدة، ولكنني كنت أجهل ما سيكون مصيري تحتها بدون إبتسامة "منى".

# شقيقتي خدّوج

**بقلم: الدكتور سمير انطاكي**

دخلت خديجة غرفة المعاينة مع والدها. كانت تمشي ببطء تتفحّص الأرض قبل أن تتطأها قدماها. أحسست بأنها لا ترى، كانت في الثامنة عشرة من عمرها ترتدي الزي البدوي التقليدي، ووجهها موشوم ومعلّق في أنفها خرص من ذهب.

طلبتُ منها الجلوس بعد أن ساعدتها على ذلك، وبدأت بالسؤال، وكما هي العادة كان الجواب يأتي دائماً من والدها. فهي لا تفكّر ولا تتكلّم.. مهمتها أن تقوم بأعمال المنزل وأن تنجب الأطفال. قال والدها بلهجته: يا دكتور، البنيّة عميانة من شهر، من شهرين، والله ما ندري، جينا على الله وعليك، بدنا تحط جهدك كلّه.

قمت بفحصها ثم وضعت القطرات لتوسيع الحدقة وفحصت ثانية فكانت دهشتي عظيمة، وتألمي أعظم، لِما شاهدت، إذ كانت هذه الانسانة المنصاعة للقدر، الوديعة كالحمل، مصابة بانفصام شبكية شامل في العينين.

قلت في نفسي: "يا لها من مصيبة"، يا أبا خديجة ابنتك

مصابة بانفصام شبكية في العينين وهي بحاجة إلى عملية جراحية وحالتها صعبة جداً".

قال: "داخلين على الله وعليك . هاي ماهي شغلتنا، لو منفهمها ما كنا جينا عليك، أنت المعلّم، وما في شيء صعب عليك باذن الله".

قلت: "بدها مستشفى".

قال: "تصرّف".

قلت: "أوكي راح اتصل بالمشفى أعطيهم التعليمات اللازمة وأنت خذ تكسي وروح لهناك".

قال: "أنا راح أتركها هون، هاي أمانة برقبتك، أنا رايح لأهلي في البادية حتى أجيب أمّها وأجيب مصاري.

فقلت: "ولكن هذا غير معقول".

قال: "ولو هي مثل أختك"

ووضع أصبعه في فمه وبلّله باللعاب ثم أخرجه ووضعه على رقبتي قائلاً: "والله هي أمانة برقبتك، خذها المستشفى، اذبحها، أعمل لها كل شيء لازم. نحن ثقتنا كبيرة فيك، توكّل على الله يا شيخ ما في غيره".

وأمام هذا الاصرار طلبت من خدّوج أن تستريح في الصالون ريثما أنتهي من معاينة باقي المرضى فأهتم بها. وعلى هذا غادر والدها واعداً بالعودة بأسرع وقت ممكن. وترك على طاولتي رغم معارضتي قطعة نقدية ذهبية لتغطية المصاريف الأولية.

وما إن انتهيت حتى أخذت خديجة في سيارتي إلى المستشفى وقمت بتسجيلها على قدر ما أعرف عن اسمها وعمرها وعنوانها، إذ كانت تجهل كل ذلك. وكنت أشدّها من يدها لأوجه خطاها

برفقتي. وسلّمتها للراهبة المسؤولة عن جناح النساء وشرحت لها حالتها. وفي اليوم التالي توجهت إلى المشفى فعاينتها مجدداً وقررت إجراء العمل الجراحي للعين اليمنى أولاً، حتى لو لم يأت والدها، فهذه كانت مسؤوليتي.

وبالفعل في اليوم التالي أتيت باكراً لأنني أحسست بأني لست طبيبها فحسب وإنما ولي أمرها. فواسيتها وطمأنتها وأمسكت بيدها وشددت عليها، وكلمتها بكلمات حلوة ولطيفة، وجعلتها تبتسم، عندها قلت لها: "بون جور" يا خدّوج.

فأجابت "بون جور" يا حكيم، ومنذ ذلك الوقت وكلمة بون جور لا تترك شفتيها، حيث أنها سمعتني أكلم الراهبة عند وصولي الجناح قائلاً: "بون جور سور مارتا". فقالت خدوج: "ما يعني هذا ولماذا لا تقول لي الشيء نفسه؟"، وهذا ما فعلت. وتمت العملية الأولى على خير وسلامة. وفي اليوم التالي استقبلتني خدوج بـ "بون جور يا سمير"، حيث أنها قررت إلغاء الألقاب، وهل من ألقاب بين الأهل؟. ولما نزعت الضماد، كانت الصرخة: "إنني أرى يا سمير إنني أرى". وأمسكت بيدي وطفقت تقبلها وتضمها إلى صدرها وتصرخ " إنني أرى يا سمير إنني أرى". فطلبت منها الهدوء وغيّرت الضماد بعد أن وضعت القطرات اللازمة.

وبعد أسبوع وهي في تحسّن مستمرّ، قررت إجراء العمل الجراحي للعين الثانية التي كان وضعها اسوأ من الأولى. يومها دخلت غرفة العمليات في السابعة صباحاً وخرجت ظهراً، ولكن كلي تفاؤل وأمل. وفي المساء مررت على خدوج، وكانت قد استفاقت من البنج لتوّها، فطمأنتها وأمسكت بيدها ومسحت جبينها، وقلت لها: "بون سوار يا خدوج" فقالت: "البون جور

كانت لعيني اليمنى فهل "البون سوار" هي للعين اليسرى؟ فقلت: "لا... البون جور للنهار، والبون سوار لليل". وإن شاء الله لن يكون هناك من الآن وصاعداً إلا "بون جور" فوداعاً "للبون سوار" وللظلام وللعمى يا خدوج.

فقبّلت يديّ كالمعتاد وهي تسأل عن والدها، فوعدتها بأنني سأظل أهتم بها، كما فعلت حتى الآن، ريثما يأتي هذا الأخير. فاطمأنت ونامت مرتاحة البال.

وفي صباح اليوم التالي كان والدها بانتظاري عند مدخل المستشفى، فاعتذر لتأخره لأنه كان عليه أن يوصي أحداً بالأغنام وآخر بالأرض، كما أنه طرد زوج خدوج الذي كان يضربها بشكل مستمر منذ زواجهما الذي مضى عليه خمسة أشهر، فكان والدها مقتنعاً بأنه هو السبب في فقدان بصرها. ورغم أنني لم أؤكد له علناً ذلك، لكنني أعتقد أنه على حق، فهذا الضرب ساهم في انفصال شبكتها الهشة نظراً لإصابتها بقصر بصر شديد.

وفي قصر البصر تكون العيون كبيرة الحجم، وقد تغنى بها العرب منذ أقدم العصور، كما جاء في هذا البيت لعلي بن الجهم حين قال:

عيونُ المها بين الرصافة والجسر

جلبنَ الهوى من حيث أدري ولا ادري

فهذه العيون التي يشبّهها الشاعر بعيون المها الكبيرة والرائعة ولكنها لا ترى بوضوح، فهي مصابة بقصر بصر شديد كما هو الحال عند مريضتنا.

دخلتُ غرفة خدوج وكان ترحيبها بي أكثر من ترحيبها بوالدها، حيث أنني أصبحت منذ عشرة أيام بمثابة والدها وأخيها

ومنقذها من ظلمات الدهر. فقبلت يدي بعد الـ "البون جور" المعهود، ومن ثم قمت بنزع الضماد عن عينها الثانية، وكانت الصرخة من جديد "بابا بابا إنني أراك يا بيي يا بيي". فما كان من والدها إلا أن ضمني إليه وقبلني من جبيني ومن كتفي وبكى كطفل صغير.

منذ ذلك اليوم وخدوج تزورني مع والدها مرة في السنة. خدوج ترفض وضع النظارة الطبية، ولكنها ترى تقريباً مثلما كانت ترى قبل أن تصاب بالانفصال، فهي سعيدة جداً.

وفي كل زيارة تلبس خدوج أجمل ثياب عندها وتضع أبهى الحلى من أساور وأقراط وعقود ذهبية، وتعلّق أجمل خرص في أنفها. وتستعمل أفخم ما لديها من عطور، وأحياناً تمزجها معاً وتدخل غرفة المعاينة ووجهها يشعّ نوراً وكلها ترتجف للقاء طبيبها ومخلّصها ووالدها وأخيها، فتبدأ "بالبون جور" ثم تقبل يدي والبسمة لا تترك شفتيها ومن ثم تمسك بيدي ولا تريد أن تتركها، ووالدها واقف، ينظر إلى هذا المشهد وهو يبتسم قائلاً: "هاي مثل أختك سامحها". ولكن لمَ أسامحها؟ إنني لم أشعر قط في حياتي ولن أشعر بشعور كهذا. إنه مزيج من العرفان بالجميل والمحبة. إنني متأكد بأنه عندما تدخل خديجة غرفتي تصبح إنسانة أخرى، وهذا يساعدها على تحمل حياتها الصعبة لمدة أشهر حتى زيارتها المقبلة. والشيء الغريب هو أنني أعلم بوجودها في عيادتي كلما عبق عطرها ووصل إلى أنفي، فتتعجب الممرضة عندما أسألها: "هل خدوج في غرفة الانتظار؟".

لم تزرني خدوج منذ أكثر من عشرة أشهر، وإنني على يقين بأنها لن تتأخر وقد ألقاها غداً أو في الأيام المقبلة، ولكنها تأخرت هذه المرة.

بعد غياب دام أكثر من سنتين، عادت خدوج صبيحة هذا اليوم بصحبة والدها وهي تحمل طفلاً وسيماً على ذراعها وآخر جنيناً في أحشائها. كانت فرحتي عارمة لما علمت بأنها عادت وتزوجت من شاب لطيف يبادلها العطف والحنان ووالدها راض عنه.

وكما هي العادة قبلت يدي وكلمتني ببساطة وعفوية. وبعد أن عاينتها وطمأنتها، طلبت منها ومن والدها أن يقفا لألتقط صورة تذكارية لهما نظراً للصداقة التي تربطنا.

فرتب والدها هندامه وعباءته وركز العقال والحطّة، وحملت هي طفلها، ووقفت بالقرب من والدها، فالتقطت العديد من الصور وطلبت منها أن تبتسم ففعلت وأخذت صورة ثالثة ورابعة.

وأنا أتحدث معها عن أمور شتّى كان السرور يعمّ قلبي. لا داعي لأن أقول لكم أن العيادة كانت مكتظة، ولكن كان لا بد أن آخذ شيئاً من وقتي كي أثبت هذه اللحظة على "فيلم" يبقى لي من أحلى الذكريات، وأعد بأنني سأعلق الصورة في مكتبي في أحلى زاوية، لأنه كما يقول المثل الصيني:

"صورة واحدة تعادل مئة ألف كلمة".

# قصائد

# ألجَرادْ

لم تشرق الشمسُ في دارنا اليومَ
ولا اشرأبت قممُ الجبال في الأعالي
وهدير الريح يطغى على الخرير في الجداول والسواقي
والغيم الأسود غرابٌ يحطّ على الترابِ، وعلى أسطح المنازل.
لا سماء للطيرِ، ولا عشّ على الأرض
ولا حظائر للقطعان
وأسماكُ البحرِ ما عادت تلِدُ في أدغال القصبِ الهشيم
نسل لوط يقتحمُ أرضي،
والجرادُ الزاحفُ من الربع الخالي يلتهمُ الحصيدَ
ها هم الغزاة يعتمرون عمائم الحجّاج
يضاجعونَ التنّينَ
فتتكاثرُ سلالات الأفاعي،
وتسدُّ الطرقات والمداخل
وتحت سنابك المغول يرتمي شعبي القتيل

يا جبال اللُكامِ ويا أرزَ الأمانوسِ العاليْ
يا عبَقَ الياسمينِ المتصاعد في سماء دمشق.
وجهُ انطاكية كئيبٌ؟
لا نسر يحطُّ على أعالي الجبال في الأقرعِ
ولا قافلةٌ تؤوبُ إلى الواحة في تدمرْ
ركبُ المليكة تائهْ
وقوسُ النصرِ ملعبٌ للريحِ،
والساحاتُ مرقدٌ، يتساقطُ فيها الغبارُ الطالعُ من الربع الخالي.
وأنت يا بردى،
لا نبعٌ يتدفقُ في أحضانِكَ.
هي ذي ذئابُ سمرقند تسدُّ الطرقات
وصقرُ قريشٍ طريد الرايات السودِ.
وعدٌ،
يا شمسَ الخابورِالحبيسة وراءَ السحابِ الداكن،
سيأتينا نيسانْ.
سينحسرُ الطوفانْ،
وينحسِرُ الماءُ والمطرْ
وتعودُ السفينةُ ويعودُ القمرْ
سينحسرُ الظلامْ
وسينمحي الركامْ
وستكتنز السنابلُ، ويموجُ القمحُ في سهولِ الجزيرة.

ستعود البيادرُ،
ويعودُ إلى الحظيرة،
ثغاء الأغنامْ
وليالي الصيف، وأسرَّة الأطفالِ فوقَ سطوح المنازل..
سيعودُ الصغار،
فتزورُهم أنجمُ المجرّةِ
ويأخذهم الكرى، في رحلة الأحلامْ.
هوذا المُقبلُ باسمِ الربِّ المقدسْ،
عائدٌ،
تُرفعُ لهُ الراياتْ ،
وتهللُّ لهُ الأفواهُ
وترتفِعُ الأذرعُ بالتضرعات
ويهِلُّ الفارسُ المرمحْ
يلعلع صوتُهُ في البراري، وفي الطرقاتْ:
إسميَ جلجامش...
أنا الذي ارتقيتُ السماواتَ،
وأنا الذي اشتهتِ الآلهةُ الشريرةُ عرشي
بلا أسوارٍ بنيتُ مدينتي،
وبلا حدودٍ شرّعتُ ممالكي.
ريحُ السمومِ لن تحصيَ أيَّامي،
فأنا قاتلُ التنينِ،
قلبيَ لن يسكن في الراحة،

والشمس لن تسكنَ وحدَها في الأعالي
والمحيطاتُ لن تُحَطِّمُ أجنحتي
أما أنت ، أيتها الآلهة الشريرة الصغرى...؟
فعلى العتباتِ خائبةً ستركُنين.

# اليومُ الأوَّلْ

سارقُ النارِ، أنا آدم ،
من أعالي الأولمب آتٍ!؟[1]
قادمٌ من الفردوس عار،
حاسرُ الرأسِ،كما الشمس وجهي،
وقدماي الهواءُ.
للسماواتِ جناحي،
ولـ" أنليل "أرضي
ينغلُّ فيها
يسقيها،
فيأتيها المخاضُ.[2]
بسمة الشقَيْقِ في السهلِ،

(1) تقول أسطورة إغريقية أن بروثوميوس سرق النار من آلهة الأولمب فغضبت عليه.

(2) من أسطورة أنليل أو الريح التي تجلب الخير والبركات.

في المرجِ
في الوديانِ
في أديم الأرضِ،
في كلِّ الحنايا.
أنهرٌ تجري، وأشجارٌ تطولْ،
وحقولٌ تضحكُ في الشمسِ،
وأعناقُ سنابلْ وبقولْ
غابتي بكرٌ، لا دبيب مرَّ فيها
لا فحيح ،لا زئيرْ...
وعواءُ الذئبِ لم تعهدهُ دياري،
لا نباح ،لا نقيق، لا صفير.
وحديَ أنا الإنسانُ في الكونِ،
على أجنحة الشمسِ أطير.

# خريف...

الشمسُ في تشرين واهية،
يُطارِدُها الغُروبْ.
والموتُ في الحقلِ مذ غابتْ تغاريدُ الطيورْ.
لا العُشبُ يَخْضَوْضِرُ في المراعي،
ولا الأغصانُ على الأشجارِ تَطولْ،
والريحُ، حولي، تثورُ،
وعلى التلالِ العُقْمُ، في شبقٍ، يغير.
يا أيها الموجُ المسافِرُ على المحيطِ،
يا خفْقَ السواري في هديرِ الريحِ
رَقَدَتْ مراكبي، وطويتُ أشرِعَتي،
ورمادُ أجنحتي، كما الهباءِ يطيرْ
ومواقدي، حولي، خَبَتْ.
وأضلُعي؟ للثلج أسلمتُها،
وأسلمتُ قلبي للصقيعْ.
ما عادَ لي أجنحةٌ تسافرُ،

ولا شبقٌ بأرضِي،
فلِمَنْ تعودِين، يا زُهَيراتِ الربيعْ؟

# مزمور لفلسطين

الجفنُ تحتَ الحراءِ يرقدُ،
وفي الأوردةِ تغلُّ مخالب المشعوذين
تيجانُهُمْ يصنعها العبيدُ.
هيذي راحابُ، تتدلَّهُ في غُلمةٍ،على السريرِ،وشبقُ يشوعَ يلطُمُ أسوارَ أريحا...
النار تلتهمُ مدينتي
القدسُ في حضن قيَّافا..
ومن فجاجِ الأرضِ يأتي عريرُ الأرواح الشرِّيرة :
وجوهُ أبقارٍ،
وأنيابِ حميرٍ،
وأطرافٌ كما النمورِ المرقطةِ،
تداعب أثدائها الذئابُ والخنازيرْ.[1]
"يأخذون الزوجة من حضن زوجِها،

(1)

والرضيعَ من ثديِ أمِّهِ،
والصبيَّ من حضنِ أبيهِ"...![2]

شحيحٌ ماؤكَ يا أُردنُّ
وأرضُكَ مشرَّعةٌ للجرادِ الجائعْ...
لكأنَّ لا نبي فيكَ اِستحمَّ،
ولا الخطَّابُ على صخرِكَ صلَّى،
ولا ،على ديارِكَ ، مرَّ إسراءٌ.

آهِ يا جبلَ الحَرَمونِ!
أيها المُعَمَّمُ بالثلجِ والغيومْ
يا سليل العمالقة والآلهة!
اجعل جبيننا كثلجِكِ في البياضِ،
وليعُدْ سحابُكَ العريبُ الراعِدُ إلى سماءِ اليرموكْ.

(2)

# مهاجرٌ من حكَّاري:

مقتبسة من الأغاني الشعبية في جبال حكاري في شمال العراق ومن الملاحم البابلية.

أيها الهديلُ الحائمُ فوق "العامدية" ،
سربُ أشواقٍ في المعيَّةِ أطلقتُهُ،
حلِّقْ على جسر الحسان في "زاخو"
واسألْ كرومَ التين في عنكاوا ، أتذكُرُني؟
على العتباتِ، شاخ العشبُ انتظاراً ،وإلى الدارِ لم يأوِ الصغارُ...
كانوا على الرياضِ الخضرِ يلهون.
والفراشاتُ في أسرابهم،
وعلى الممراتِ، احتفتْ بهمْ ، جموعُ الأقحوان .
وفي أماسي الصيفِ ، إذ آبَتِ الطيرُ إلى الأعشاشِ،
رجِعَ الصغارُ إلى أسرَّتِهِمْ على أسطح المنازلْ،
وقوافلُ النجوم في السماءِ سامرُهُمْ، فيمرُّ على أجفانهم الكرى، وفي رحلة الأحلامِ تسافرْ.

وفي التشارينِ، إذ يعودُ الزمهريرُ خلف النوافذِ يُعربدُ ، بينما الحقولُ تغطُّ في غَيبوبَةٍ ،إلى دفءِ المواقِدِ المُضْرَمَة يعودُ الصغارُ، فتتوهَّجُ الخدودُ، ويغلُّ الدفء في صدورِهِمْ؛ فيعودُ الكرى، وتعود إليهم أحلامُهُ.

وذاتَ نهارْ ،
رجِعَ التتارْ.
وحوافِرُ خيلهم على الرياض الخضرِ مرَّتْ، فما عاد فجرٌ للدارْ ،
ولا رجِعَ الصغارْ.
مرَّتْ على النهرينِ ريحٌ همجيةٌ،
وعناقُهما على الشطِّ أذراهُ الغُبارْ.
ونجومُ المجرةِ، في أماسي الصيفِ، ثكلى
فإلى سطوحِ الـ"عامدية" لم يأو الصغارُ.
هجروا النجومَ، والأسرّة، وأحلامَ الكرى،
وحقولَ القمحِ ،
وعلى السحابِ المسافرِ طاروا.
والفراشاتُ، مع الشقيقِ رَحَلت
وكبارُ السنِّ من دنيانا تواروا.
همدتْ قصبات الرعاة ،وإلى الحظائرِ مِا آبَتِ الأبقارُ ،
وطيورُ الحقلِ ولَّتْ، وخيوط الشمسِ غابتْ
والسواقي سكنتْ
وأتى المدينة قاتلٌ غدَّارُ

لكأن سنابِكَ تيمورَ مرَّتْ ههنا،
لكأنها ، من هنا، مرَّتِ النارُ.

تنتظرُ نيسان؟
مقعدةٌ فصولُكَ يا وطن الزيقورة،
أيتها الحقول المرمَّلة والموعودة أبداً بالقيامة!
الليلُ يعشّش في الطرقات والمداخلْ
وجموع الرمل تتراكم،
والعذارى صفوفٌ ، وجهتها الهيكل..!
للآلهة الغضبى وحدها، حقُّ النكاح،
ولقوافل الطفولة المذابحُ ،ومراسم الشهادة.
على المدى حدود الغابة،
ولم يبقَ في الساحات إلا الكواسر.
هي ذي الآلهة الصغرى على السفينة تشدُّ الرحال وخلفَ ظهورِها شعبيَ القتيلْ.نسلُ لوطٍ لا يسمعُ نحيبَ الأطفال.
آه ياوطن الشرائع، يا أيها الفلك التائهُ، والمسافرُ بلا آفاقْ..!
يطارِدُكَ جنونُ الموجِ وشبقُ الآلهةْ.
"في القعرِ امرأةٌ تصرُخُ وقد آلمها المخاض" :
أنا الأمُّ، والآلهة تأكلُ أولادي..
أنا الأمُّ وسمكُ القرشِ يأكل أولادي..
وحولِيَ الأفاعي، وكلابُ البحرِ، سُلالاتٌ جائعة.
العاصفة تلتهم البلاد، والرياح العتيّة تضرب أسوار نينوى،

من فجاجِ الأرضِ تتصاعدُ الأرواح الشريرة ،
وفي الحقول الطلقة حيث كانت السنابل تموج، وحيث كانت أهازيج الحصّادين تتصاعد، مرَّتْ قطاراتُ الإنكشاريين محمَّلةً بالجنودِ، وبالشجر المحترقْ.

أيتها الآلهة المتخمة بصلوات الشيوخِ وشهادات الأطفال!
كما الذباب تحومينَ حول الذبيحِةِ، ولكِ، في كلِ يومٍ، وليمة.
وجهُ تيمور الهجينِ يطارد أطفال بلادي..
كل دماءِ الشهداءِ لن تروي شقوقَ أرضِنا اليابسة..
المطرُ ضالٌ على الكثبان، وعلى المدى يجوبُ اليبابْ.
الليلُ كما القماط يلفُّ المدينة،
والفارسُ المرمَّحُ قد أعياهُ الرحيلُ ، وسلالات الأفاعي على الأرصفة تتقشَّرْ. لا عش يأوي إليه الحمامُ، ولا سطوحٌ يلجأ إليها السنونو العائدْ.
نبحثُ عن نجمةٍ، عن كوّة في الممر القاتم...
نبحثُ عن قمرٍ، عن حمامة تحملُ غصن زيتونة،
وعن عتبةٍ تؤوينا.
.
يا سماءَ أربيل، وبحقِّ الآلهة الأربعة، ما برحت نجومُكِ تقودُ ركبي.
صوتٌ من السماءِ آتٍ، وفي المدينة نداء :
هوذا ابني الوحيد جلجامش، فأعدّوا له أرحام العذارى..

من نسلِهِ ستختصبُ الأرضُ على دجلة،
وستنمو السنابلُ وتمتلئ الصوامعُ على ضفافِ الفراتِ
ستتكاثرُ القطعانُ وستمطرُ السماءُ سمناً وحليباً وعسلاً...
سيعودُ الأطفالُ إلى سفوحِ حكَّاري،
وستعودَ ،خائبةً، إلى أوجارها، ذئابُ سمرقندْ.

# عرسٌ في قانا

**(مقتبسة من ملحمة بعل الكنعانية)**

أدوني قتيلٌ وعلى الضفاف شقائق.
وعشتارُ عارية القدمين تنوحُ:
هبطُ الخريفُ وتعرَّتِ الأشجارُ
والشمسُ غابت ولَمْ تَعُدْ أقمارُ
بشراً لو كنتُ
لحملتُ السلّةَ ورداً وفلاً وأزهارُ
وضممتُ صدرِك إلى صدري،
وأطلتُ في لهفي وفي قُبُلاتي
ورشفتُ من شفتيك الرحيقَ
وعلى ذراعيكَ أطلقتُ آهاتي،
حتى تلاحمت أضلعي باضلُعِكَ
وحتى تماهت ذاتك في ذاتي.
لَتَبِعتُكَ للقبرِ لولا ألوهتي

وسخرتُ من طولِ المسافاتِ
وتعودُ " عناةُ" إلى الحقولِ:
عشتارُ عشتارُ
"ماتَ البعلُ، ولم يُدفنْ،
ما زال حياً، ما زال حياً ولن يُدفنْ
في ثنى الحقول إلهي، ولن يُدفنْ.
تلكَ رؤيا من خالق الخلائق "إيل"
بعلُ ما زالُ حيّاً"
فأبشري يا ابنة الرطوبة،
إفرحي يا أبنة الندى،
واختالي يا ابنة الكون الواسع،
ها أنتِ يا سيدتي الجميلة،
تعودين من أزمنة الرمادِ،
وأوجار الأوجه الهجينة،
تسكبين في الترابِ لقاحاً، فتخضَرُّ الأرضُ، وتزخُرُ بالتقدمات الحقولُ، تكتَنِزُ السنابلُ، وتمتلأُ الصوامع.
اوَ لم يأتيكِ صوتنا: " يا وطن الآلهة لم يبقَ إلا أنتَ. إذا صرعوكَ أطلَقْتُ النارَ على حنجُرَتي".
على أسوارِكِ انهارت ،عواصفُ الرملِ كثباناً .
بيروتُ ! لا كالمدنِ أنتِ
عشتارُ أنتِ
شكلٌ آخرً أنتِ

عُدْتِ، وفي عينيكِ زخْمُ المواسمِ التي لم تأتِ،
وعلى شفتيكِ بسمةً الأقحوانِ،
وفي راحتيك سخاءُ الحقولِ، ووهجُ الأرجوان
وعلى صدركِ لآلئٌ وصفُّ مرجان.
ونأتي إليكِ بهرولةِ الفرحْ.
فرحُ الأرضِ بالفارسِ المُرمَّحْ.
وبأسرابِ الطيرِ العائدْ.
أبشري يا أجيال الشقيقِ،
لن يمرَّ التنينُ.
فاتنةٌ يا عروسة المتوسِّطْ،
وشهيٌ برتقالك الليلكيِّ.
هوذا السروُ يرقصُ ويتباهى على السفوح المهرولة إلى المرفا، أليسارُ تقودُ الجموع، وهاني بعل يرفعُ الصواري.
عرسٌ في قانا،
وعشتارُ إلى الجبالِ عادت، لتختصبَ الأرضُ، ولتزدحمَ الحظائرْ، ولتنموا الحبوب.
أيتها البتولُ ، يا مدينتي:
"الحربُ على الأرضِ مخالفةٌ لمشيئتي،
بلقاحِ المحبة لقِّحي ترابي.
أُسكُبي السلامَ في كَبِدِ الأرضِ،
والعسلَ في قلبِ الحقولِ
تعالي إلينا،

وَلْتُسْرِعْ خطاكِ نحونا ، لِتمطرَ السماءُ سمناً، ولتمتلِاَ الأودية عسلاَ.

بيروت! أيتها القارةُ المشرعةُ بالحبِّ والأحلام،

سماؤكِ امتداد الكونِ.

تعودين مثخنة بالغضبِ والجراحْ،

وسربٌ من ملائكة السماء يردد:

سينبلجُ صباحْ .

شرِّعي الحدودَ، من شموخِ صنينَ إلى مشارف بابل، وإلى ثنايا الجبالِ حول نينوى.

وجهُكِ مطلعُ الشمسِ على أسوارِ أورورك، وقبلتُكِ القممُ الثكلى في أعالي هَكَّاري والأقرع ، وقبلَتُكِ الأبراج في بابل.

وشّرِّعي الأجنحةَ،

وحلِّقي.

# فلتغتسل العواصم الحزينة بلونك

وجاءَ التتارُ. من صقيع آسيا؟ من البحر؟
لا هم من أين أتت، من الاوجار.
جاءت؟ من ألسنة النار
وحلَّت سنون العجاف والتيه
هي فصولُ الشتاتِ
ولا نيسان على العتبات.
نيرون على قيثارته قد أغلق المدينة.
تضيق بنا الأرض فنسألها:
"إلى أين تذهب بعد الحدود الاخيرة؟ / أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة؟ /أين تنام النباتات
بعد الهواء الأخير؟".

---

مجلة الحكيم، الصادرة في الولايات المتحدة الأميركية - نيويورك - العدد رقم 2 - شتاء/ ربيع 1998

نوعد انفسنا بآفاقٍ مقبلة تحضننا، وبجناحين يحلِّقان فوق ألسنة النار.

فما زال اليقين صهيلاً: "على هذه الأرض ما يستحق الحياة: تردد ابريل... عشب على حجر....

وخوف الغزاة من الذكريات". ثم

"نهاية أيلول....وخوف الطغاة من الأغنيات".

خمسون عاماً: "مشت الخيول على العصافير الصغيرة".

"فابتكرنا الياسمين".

"ليغيب وجه الموت عن كلماتنا".

خمسون عاماً، لا أعشاش في سقوف منازلنا.

لا أرض لنا، يحملنا التيه.

خمسون عاماً، "وما زال في الدرب دربٌ، ومازال في الدرب

متسع للرحيل". "سنرمي كثيراً من الورود في النهر كي نقطع النهر.

لا أرملة "تحب الرجوع إلينا، لتذهب هناك...هناك شمال الصهيل".

ويعودُ الصهيل: "أنا من هناك... ولي ذكريات.

ولدت كما يولد الناس.

لي والدة، وبيت كثير النوافذ، لي أخوة، أصدقاء،

وسجن بنافذة باردة".

"أنا من بلد لم أجد ختمه في جواز السفر".

أنا..."أنا الذي أسمي التراب امتداد لروحي"

"أسمي يدي رصيف الجروح"
"أسمي الحصى أجنحة"
أسمي العصافير لوزاً وتين"
أسمي ضلوعي شجرْ"
وأستلّ من تينة الصدر غصناً"
"وأقذفه كالحجر"
ويمتد الصهيل: غضب... غضب. غاضب أنا يا أبي.
"أنا الذي مررت على الأرض قبل مرور السيف على جسد حولوه الى مائدة"
أنا الذي "كلما آخيت عاصمة... رمتني بالحقيبة"
"أنا ولد الكلمات البسيطة"
"وشهيد الخريطة"... "أنا يوسف يا أبي... يا أبي"
إخوتي لا يحبونني..." ... "وهمو أوقعوني في الجب. واتهموا الذئب. والذئب أرحم من أخوتي...
أبت".
طريدون كنا يا أبي، كيوسف، : "كان مطار أثينا يوزعنا على المطارات..."
"وكان مطار أثينا يغير سكانه كل يوم" إلا نحن، "بقينا مقاعد فوق المقاعد، ننتظر البحر،
كم سنة يا مطار أثينا؟"
آه أيتها العواصم الحزينة:
"لماذا انحنيت لدفن الضحايا"
"وما زال صدرك صاعدْ."

وتتوالى سنوات التيه، فالارض لا تنبت إلا قوافلاً للنفط.

والسماء دخان أسود.

نيرون في المدينة:

"ورماد قريتنا إختفى بسحابة سوداء لم يولد عليها طائر الفينيق بعد، كم توقعنا،

لم تنشف دماء الليل في قمصان موتانا. ولم تطلع نباتات كما يتوقع النسيان، في خوذ الجنود"

أيتها العنقاء، يا أميرة الحلم والشهادة،

أين افترقتم؟ أنت وأسراب البعث.

لا صوت مقبلٌ إلا نعيب الغراب، وعلى أجنحته طقوسٌ للجنازة:

"كان شيء يشبه العنقاء"

"يبكي دامياً"

"قبل أن يسقط في الماء"

"على مقربة من خيمة الصياد"

وحينها "وههنا وقعت ريح عن الفرس"

ولكنك أيها الدوري:

"ستأتي أيها الدوري، مهما ضاقت الأرض، وفاض الأفق"

ستأتي... وستنقر على نوافذنا الموصدة، فتنفتح لنا سماوات....

وينطلق الصهيل:

"غضب يدي"

"غضب فمي".

"ودماء أوردتي عصير من غضب".

وسيضمك صهيلي أيها الدوري،

فـ :أنت حر، وأنا حر، كلنا يعشق" "الغائب،

فلتهبط لكي أصعد، ولتصعد" "لكي اهبط، يا دروي! هبني جرس" "الضوء. أهبك المنزل المأهول بالوقت"

"كلانا يكمل الآخر"

"ما بين سماء وسماء عندما نفترق"...

محمود....

"يا أيها الجسد المضرج بالسفوح وبالشموس المقبلة"

"وتقول لا"

"يا أيها الجسد الذي يتزوج الأمواج فوق المقصلة"

"وتقول لا"

"أوقف العمر لكي نبدأ من أي رحيل"

و"تأجج كنباتات الجليل"

"وتوهج كقتيل"

هيا " ونحفر أجسادنا بالحديد... ونحفرهابالحديد.... ليبزغ نهر".

ولتحضننا أمواجك "إن التشابه للرمال.... وأنت للأزرق"

هيّا فـ"سنكتبُ أسماءنا بالبخار الملون بالقرمزي،

سنقطع كفَّ النشيد،

ليكمِّله لحمنا.

هنا سنموت، هنا في الممر الأخير"

"وهنا أو ههنا سوف يغرس زيتونه... دمنا"

وعد... وعد مع حفنة من رماد الفينيق،مجبولة بهلامات العنقاء،

ف "هذا النهاريعودُ من الأبيض السابق"

ولتغتسل العواصم الحزينة ، بلونك.

"ليولد في الزمن العربي نهار"

---

طائر الفينيق، أو العنقاء، طائر اسطوري. كان كلما يشيخ، يحترق لينبعث من رماده طائر جديد.